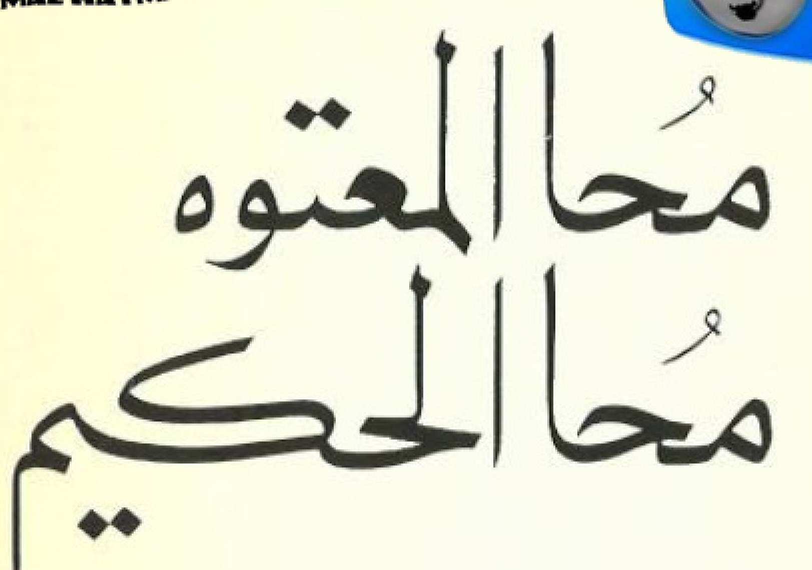
الطاهر بن جلّون



مُحا المعتوه مُحا الحكيم

دار سراس للنشر Seuil

صدر في هذه السلسلة

« نجل الفقير » : مولود فرعون

« التطليق » : رشيد بوجدرة

يدير هذه السلسلة

محمد كمال قحة

الطاهر بن جلّون

مُحا المعتوه مُحا الحكيم

ترجمة

صالح القرمادي

راجع نص الترجمة

محمد كمال فحة وعبد الوهاب الدخلي

دار سراس للنشر Seuil

نشر هذا الكتاب في طبعته الأصلية بعنوان

Moha le fou, Moha le sage

من دار **Le Seuil**

اطلع الكاتب على هذه الترجمة
ووافق عليها

6، شارع مونبليزير — تونس
27, Rue Jacob - Paris VI°

يا صمت ، يا صمت المقابر في شوارعها الحزينة ،
اعوي ، أصيح ، أصيح في لهف فاسمع في السكينة
ماتنثر الظلماء من ثلج وقار .

تصدي عليه خطى وحيدات ، وتبتلع المدينة
اصداءهن ، كأنّ وحشا من حديد ، ومن حجار ،
سفّ الحياة فلا حياة من المساء الى النهار .

بدر شاكر السياب

الديوان ــ دار العودة ص 281

كان التقرير الطبّي جازما : « توفي السيّد أحمد ر... بسبب سكتة قلبيّة عقّدتها اصابة سحائية » . وأكّد ذلك بلاغ نشرته الرابطة الوطنية لحقوق الانسان التي أقرّت أن « الشاب كان قد تعرض لشيء من التعنيف أثناء استنطاق الشرطة له كما عبّرت عن انشغالها امام الظروف التي حفّت بهذه الوفاة » .

وصرح أحد رجالات السياسة الى الصحافة الأجنبيّة : « لسنا هنا في الشيلي أو الأرجنتين . لا موت تحت التعذيب في بلادنا ! »

دعنا من هذه التصريحات الرسميّة ومن قيمتها . عذّب رجل فابتدع خطّة كي يقهر الوجع والألم : سيستعيد أجمل ذكريات الردهة الزمنيّة التي اخترقها .

هو صوته الذي سنسمعه . ومن غير « محا » ليلتقطه ويبلّغه للاخرين .

تحت عبء الأبدية السماء .

ترك للرمال ، يسائل الحجارة ، يسائل جدار الحصن ، يسائل السور انطفأ كوكب ، هذا الصباح ، على الندى . كان طفلا .

التحفت البلاد صمتا وغيما وزرقة .

هنا ، وراء هذا الجدار الفاصل بينك وبين الحياة ، أبد تتخبّط .

ولعلّك سائلني أيّة حياة أعني . أنا لا أقصد حياتهم المحتضرة وانما تلك التي سكنت أحلامك .

شهقة تشقّ الوحشة العاصرة .

القمر المنير فوق تربة قريتك المغراء : أرض تتحرك ، أرض تشكو الهجر ، تتقدّم عارية نحو الغابة . النجوم شاخصة تعمّر سماء غير مبالية بينما يتمطّط جسدك فيغمر الزمن ويفقد الذاكرة : زبد البحر المدبر . والكلّ مدبر ، الزيتونة ، البستان ، الجدول ، الصوت ، وسط ضباب

خفيف أو حجاب شفّاف . إنّها الحمّى في بدنها .

يد لطيفة وانية تدفع بك نحو الليل . طائر مزّقته الرياح يسقط مسجّى على العشب النديّ .

جسدك . جسدك فوق منضدة باردة . مكبّل . هامد . فتحته أيد مقفّزة . ثقبته أصابع معدنية . الدم ندى للبراءة . لقد شعّثت الريح شعرك . تساقطت عليك الأسئلة ودارت كالسيف في مؤق العين . على حافة الليل ، دمعة . حصان ركبه الجنون . عصابة سوداء فوق عينيك . — حصان رافل في بستان طفولتك يضربه رجل عجوز . وأنت ، اضطجعت تبكي ، تحت الشجرة .

وتمر الأيدي المقفزة فوق صفحة وجهك وتملأ فاك ترابا نديا . أنت تختنق . ينفتح الجدار العليّ فتتنفّس ثانية . صرخة انفلتت كومض البرق من صدر الليل الذي لا زال يحتضن قليلا من الجليد ومن الكلس . الألم ، كومض البرق ، والمرآة هشيم ؛ هشيم الموت المسكون عبرات . الجنون في بصر لك قدّ من حلكة يطرد الخوف من هذا النفق . أنت هنا لتحترق ، لتبدد روحك بين أصابع الموت . لم يحي جسدك إلّا القليل . بدأ النور ينسحب من عينيك المعصّبتين . ورقات زهور زرقاء وقعت فوق العصابة

السوداء التي تمنع عنك النور . ألا أنك تسمع خرير العين وتسمع ثرثرتهم . كما تسمع لهث النفس فيهم . انهم يريدونك أن تغرق في الخوف . ولكن الحمّى تنتشلك من بين خيوط شركهم .

الجدران باردة . أصابعك قد التوت على العفن وأنت تريد الصمود . أصابعك من الخضرة ومن الرمل . عيناك معصّبتان . وترى . الليل مرج نجوم تعبره الممهرات . الجدول . أنت تسمع خرير مياهه . ورقة من نعناع بين أسنانك ورجلاك منغمستان في الماء . سيكون الليل وجهاً من وجوه تلك الوحشة . تبتسم أنت ، بينما يجرف التيّار الحجارة الصغيرة .

لقد وضعوا فوق بطنك بلاطة مرمر . بطنك الأعزل . ووجهك المطمئن . وحتى عندما لا يكون لك طاقة على احتمال ما أنت فيه تصرخ من أعماقك ووجهك على صفائه . قالت لست في الدهليز . أنت تجري حافياً في البستان . البلاطة تزن طناً من الصمت . هم يتلفنون . يتلقّون الأوامر وينفّذونها . تلك حرفتهم . ووجهك ريّان متطلّع الى الشمس وتبتسم . ألجمت أنفاسك . وشددت جسمك وأنت تنتظر . البلاطة ريشة . ورقة ميّتة على جسدك في خريف صدأت أشجارها . السماء ، كلّ السماء . فوق جسدك . سكبوا الماء في السطل . لقد تحررت البلاطة . تعودت حتى برودة صفحتها على بطنك . هاهم يخططون لمحنة أخرى . الملح . استعمالاته كثيرة . يمكن تلويثه ثم غصبك على شربه أو تبولهم البول فيه ثمّ رشّه عليك . لقد اختاروا أن يلقوا فيه حجارة الملح لا بدّ أن السطل كبير لأنهم لم يكتفوا بالبول فيه بل بصقوا فيه أيضاً . تملّكك الملح لحظة . صرت لا تسيطر على جسدك . سبقت انفعالاتك أفكارك . انتفاضة ، تكاد تكون خارجة عن ارادتك ، بادرة غير واعية أو عصبية . عصابة المنسوج الاسود تجرح جفنيك الزاخرين بالنور ، المسدلين على

جمال ضاف وعلى لين مفرط . أنت تذكر ما قصّه عليك رفقاؤك . سيسقونك بضعة أقداح من السطل ، سيسقونك الخوف ، البحر هائج ، الريح شحنت حبّات رمل . اليد المقفّزة تفتح فكّيك عنوة بينما تفرغ الأخرى السطل في فيك . وضعت يدك فوق كتف الفتاة العاري ، في رفق شديد . الرمل يغطي البشرة . ألتفت صوبك الّا أنك لم ترها والنور ملء عينيك . أحسست بوقع نهديها . تلامستما . تماشيتما . تبعثكما الأمواج . تقيأت . لطّخوا وجهك بما أفرز الجسد المنهك . هذا الجسد لهم . حسبت أنها نهاية المطاف اذ ماتت في مخيّلتك صور الأرض الأم . الذكريات فيك قرح قرح أسود. جسدك تدميه دموع من الفولاذ المذاب. شفرات تقطع أطرافك . وتقول لنفسك في غمرة من الوعي الجنوني : « هذا هو الالم ! » أسراب من النجوم تقرع جبهتك . تعوزك القوّة لاقتناص واحدة منها . للذكرى . للسرد . الفضاء خوّة رهيبة . تخطى الألم جسدك . توقّفت لحظة . لا ، أنت لا تفكرّ . ولكنّك توقف كلّ شيء .

إنّها الهدنة . الفجر . النهار المطلّ يبشّر بولادة طفل . صوت أمّه وهي تستغيث بمحمّد رسول الله يصل إليك . تبتسم لأنه لم يخطر ببالك أن تستغيث بالرسول تقول لنفسك : « أشهد أن الحياة قصيرة وأن محمّدا رسولها ! » هذا المولود الجديد ! وهذا البلد الذي ابتلي بفقدان الذاكرة ! ان للموت طعما غريبا . ما أردت الموت. أنت في السادسة والعشرين من عمرك وأمّك تحب عينيك . أنهما سودوان . فسيحتان سودوان . أهدابك أيضا جميلة . أنت جائع . وتخشى الطعام . تعلّمت أنّ الانسان يصبر طويلا على الأكل وتقول لنفسك : « لن يدعوني أموت ؛ ذلك ليس من

صالحهم » ومع ذلك ... وعندها تنسى الجوع ولكن تناسي العطش أصعب . مددت ذراعك وسرعان ما اجتذبته اذ أنّ ماء العين عند سفح الجبل شديد البرودة . وانتهى بك الأمر الى ترك ذراعك تحت الماء . غنّيت لحنا بربريا لطفلتك وهي ترقص جسدها بين العشب الندي والزهر ، حنّ على حنّ . جريت وراءها فغمرتك ضحكاتها . ولكن حلقك جافّ . يدك تشدّ حافة المنضدة المعدنية . لعلّهم يجرون عليك عملية جراحية . المنضدة من المعدن ، مثلما هو الحال في المستشفيات . الرعب سحابة دهماء تمنع عنك النور . وعندئذ يداخلك الشكّ . « هل تكلمت ؟ هل بحت بشيء ؟ ولكن ليس عندي شيء أبوح به » . انت تصرخ ، تصوت ملء حنجرتك . الجدران سميكة . الجدران ثقيلة مقبلة ، مدبرة . أنت لست تدري بالتدقيق . كلّما ازددت صراخا، زادت تحرّكا . اختلط عليك الأمر. « والسقف ، هل سيدكّني السقف ؟ ربما كنت ميّتا . هل هذا هو الموت ؟ ... » صمت . إنّك تسمع دقّات قلبك رغم ذلك . أنت تجمع اشلاءك ، بل تظل تتشبّث بالذكرى اللازوردية ، كغريق ، كشجرة تحضن جذورها ، تبتلعها خوفا عليها من أن تقطع منها .

أنت أيضا ازدردت الذكريات والصور . اختلطت في ذهنك جميع الأشياء . صرت لا تعي ما تفعل . إنّك تتشبّث . كالشجرة تشد اليها نصيبها من التربة . وجبت المهلة . بحيرة هادئة . صورة بحيرة . منبسط من الأرض يحبوه نور ملائم . انك تأنس لنور الفجر . سُسْ دماغك بقليل من النظام . من يتكلم عن النظام ؟ هم يطالبون باحترام النظام ، وبماذا يتّهمونك يا ترى ؟ « بالاخلال بالنظام » بـ « المسّ بأمن الحاضرة » ...

بينما كان « محا » ينام بين أحضان شجرته أيقظته رجّة عنيفة . فألقى بنفسه الى الأرض وسلك طريق المدينة .

إنّه طفلي هذا الذي أسمع صوته ، انها صرخته ، هو نفسه ، نعم هذا صوته المتكسّر ، صوته المكبوت . وأنتم ، أفلا تسمعون شيئا ؟ لكنكم صمّ ،صمّ وجبناء . انّه يناديبا كلّنا . صوته يصلني جليّا . انه يغرّد . انه يطلق راحته نحونا . أنهك الظلام جسمه . انه طفلي . أحمد . ولدي ، ولدي الصغير ، طفلنا . رشيد أيا عطفي وحناني . ينطلق نشيدك من تحت الحجارة . صرختك تشقّ صدر الليل ، تحملها الريح . استمعوا اليّ ولو لحظة واحدة ... الى أين أنتم ؟ لماذا تعرضون عن صوت طفل تائه في دهاليز الحيرة والظلم ؟ انهم يقسون على جسده ، يقطّعونه ثم يخيطونه ... يمزقون لحمه ويطفئون الحرائق في رأسه ... اسمعوني ، الأمر ملحّ . أنا لست معتوها انا لا أمزح . أنا حزين يعيث فيّ القلق ... هذا الطفل بين أياد مقفّرة ووجوه ملثّمة .. انه طفل ترعرع بين اغصان ذاكرتي ، انه فتى جميل ، انه طاهر بريء ... ابن الغابة ابن صفيحة الزنك والغبار .. آه ! يا ويلتي ! لا أحد ينصت اليّ . هل يصل بي الأمر حدّ تعرية جسدي بينكم

حتى تستمعوا اليّ . لا . هذا أكثر ممّا أطيق . هذا لا يجوز . آه ، فهمت . انه المذياع يمنع عنكم صوتي . صوت المغنّية يراود الناس عن أنفسهم في وقاحة ، تصويتها يغطّي نداء الطفل . وإن ما كانت هي فهو المذيع . إنه يصوّت هو الآخر ؟ يسرد الخرافات ، التافه من الخرافات ، يكتفي منها بما يمنع صرخات طفلي من الوصول الى الشعب . الشعب ! أذكرت اسم الشعب ؟ لا ، هذا من الخطإ ! ليس شعبا هذا الذي يظلّ مصمّا أمام طفل يستغيث سجينا بين الحجارة الثقيلة الرطبة . الشعب هو ذاك الذي يجيد الاصغاء الى الأصوات الهاتفة من تحت ، الأصوات المدفونة خدعة ، وقد جنّ الليل وأفل كل نجم ، وغابت كل عين . اذن هو الغمر ، السرب الذي يحترف تجارة الريح والرمل ؟ لا ! خذوا جبّتي ، ولتصنعوا منها رؤيا فضّية تبيعونها الى الأزل وتربحون منها في كل زمن . جبّة المجنون تطفح بالرؤى المخبوءة ، تجلب الفضّة والعاصفة ؟ خذوها ولتكن لكلّ منكم طلسما يمكّنه من حمله المستعصي وينمّي تجارته ؛ أنتم للتجارة أنسب منكم للرقص . أما أنا فأرقص ، أدخّن العشب المجفّف وأطلق لحيتي .. أنا أعلم أنّ طفلي يرقص ويضحك معي . إنّه مجنون وتلك طريقته ليفلت من قبضة الموت المقفّزة . انه يجوب البلاد ويغنّي مع الرعاة . لي أن أطمئنّ ما دمت أسمع صوته . انهم يوجعونه ولكنّه يشوّه وجه الألم ليتركه بين ايدي معذبيه ويغدو في مروج الحبّ . اني اسمعه ، أراه . تعال حتّى أمسح شعركِ المجعّد بيدي ، تعال حتّى انظر الى عينيك السوداوين ، السوداوين الفسيحتين . أنا ذاهب . سأنطلق ممتطيا صهوة جواد آخر . لي مع طفلي في المرج موعد . أما أنتم ، امكثوا حيث انتم ؛ فالمكثوا لحساباتكم الخسيسة ، لمشاريعكم التافهة ، لطموحكم المنعدم . لقد شدّتكم الحجارة الصمّاء اليها . وقيّدكم الخوف . ومات فيكم الحياء .

وانعدمت ملكة الضحك والرقص . هيّا اذهبوا ، اهرعوا الى تجارتكم . اسرعوا ولا تلتفتوا الى الوراء . هذا ما قاله الكوكب الساخر كلّا لم يقل شيئا . فهو مشغول بغير الكلام . يرهف السمع الى حفيف الشجر يتنقّل متقدّما في الفضاء ، كلّ يوم خطوة . ضاع منكم الزمن ! لفّ في حلقة رؤوسكم المفرغة وأنا أقهقه لذلك . أحدّق في السماء فاذا هو جيش من جراد آليّ يغزو اليابسة . لكن ذلك لا يعدو أن يكون سرابا ، رؤية أخرى من وحي جنوني ، جملة رمى بها هلسي بينكم . تأمّلوا البحر أكثر ممّا تفعلون ، تعلّموا قراءة مصيركم على صفحته . الأمر هيّن البحر يكتب بكلّ وضوح . انّه متقلّب ولكن قليلا من الفطنة يكفي للتثبّت . تالله ، ما الذي يمكّنني ممّا لا ترون ؟ لعلّكم أفرطتم في الغطاء ورمتم الشطط في التدثّر بالمستورد من الثياب الصوفية . بشرتكم باب موصد امام كلّ وحي وكل نداء. بشرتكم تشقّقها التجاعيد لكنها لا تنفرج . قيسوا على ما أفعل.

تجرّدوا ، اسعوا الى البحر عراة ، اسعوا الى الغابة ، الى السماء عراة . لا تصطحبوا أموالكم كعادتكم في ذلك . دعوا كل ذلك على حافة الطريق وهلّموا نرقص فوق القمم .

أيا بنيّ !
سأنازع التراب موتانا
وسأقدم ....

يسمّونه « محا » . « محا » الخلط . الحكمة والضحكة الساخرة . يسرع في المدينة كالريح الرملية والأطفال على أعقابه . « محا » هو الطفل الذي لم يمت . انه لا يحبّ الكهول .

هل من معنى للشمس تغرب عند الرجل الكهل ؟ انه جامد كالأمن ، ثابت كخليط الاسمنت وقد جفّ . لم يعد لي منزل . لفظني الاسمنت المقوّى ، أوه ! فلا أبالغ ! أنا أنام حيثما اتّفق لي ذلك . بل في كلّ مكان الّا في البنك . بل على شواطىء البحر . أحرس القمر وأحلّق فوق اليابسة . إنّ القمر هو مصدر الموج لكنّ الموج لا يدرّ زبدا يكفي للحاجة . أتعرف أنت سرّ الموج ؟ انه يحيا ثم يموت دون أن يخون الزمن . لقد تعلّمت كلّ شيء في الشارع . سرّي في ذلك هو الكسل . أنا أنسج الشوارع وأكسو الأرواح العارية . تلك حرفتي . أغدو من شارع الى آخر . أربط بينها بنفس الخيط . خيط أفكاري . توقّد ضحكتي . مثلي في ذلك مثل الشجرة ترمي بجذورها الى كلّ مكان . نعم ، هذا صحيح ! « اش يفهم الحمار في السّكجبير ؟ » ما للانسان والزّبد

عندك سيجارة ؟

اذن فأنا أقول لك : الأمن قضيّة عسكرية . المال هو الذهب . والعافية انما هي أكداس الذهب والفضّة . الصاعقة . هل سبق لك أن رأيت الصاعقة تنزل على البحر ؟ ذلك من اثر البدر وقد غضب . من أنا ؟ أنا ابن البدر ؟ أنا ، في بعض الأحيان ، نجم ساطع يجوب السماء الصافية السوداء . لابدّ أنك تعلم ذلك ، لقد اشترى عمارات ومنازل وبنوك . انه مصاب بالسمنة . لقد أثرى اثناء الحرب . انه يشتري كلّ شيء . لكنّ البحر يستعصي عليه ، لن يناله ما دمت أرزق . انه يخيل كريه الرائحة . انّ لي جيشا لا يأتمر الّا بأمري . أنا أطلق النذير مرّة كل شهر عندما يعتلي الشيخ منبر المسجد الجامع . ولا أحد يستمع اليّ . زلزلت الأرض زلزالها ولم يتّعظوا . النكبة القادمة جهنّم . أنظر كيف يهرعون الى المال يكدّسونه ... لقد احدودبوا بعد من أثر ذلك . المال . يزعمون أنه يدفع بالانسان الى الجنون ... ومع ذلك فأنا معوز ... ولكنني أعرف كيف أضحك .

عندك سيجارة .

سلك « محا » الطريق المؤدّية الى الشجرة . أن يكون الانسان هو الشجرة . أن يكون العين الجارية . أن يكون الشجرة والعين . الماء

والأرض . معدن خصب وسماء رحيمة . ظلّ « محا » يمشي مطلقا من فيه فراشات معتوهة وعلى أعقابه أطفال يتبعونه في خشوع . يقينهم الوحيد من ذلك أن خطوات « محا » تؤدّي الى الجنة (فـ « محا » من حراس الليل بالجنة) .

في طرف المدينة الأقصى قبّة بيضاء وفتاة يحجبها الخمار . عارية تحت خمارها . لقد فرّت من المنزل . كانت تعلم أن « محا » قادر على فهمها « محا » يسمع الأصوات المبعثوة من أقصى الأعماق . ستكون الشجرة وكرا لها وستنقلب الصبية عينا تسقي الأرض المغراء . كان «محا» يتمتم ، كلماته من نور وغيم . يحدّق في السماء ثمّ يزرع فيها حفنة تربة . ويقول :

سأسكن هذا السماء جسم الموت اللّين وسأهب مقلتيّ الى الغزالة . لتتمزّق السماء ولتمثل النجوم عند قدميّ . أنا لوحدي . أنا انسان ضعيف . قوّتي تكمن في الكلمات ؛ والكلمات تخونني أتكلم ولا شيء يتحول. لا شيء يتحرك . الطين ، ربّما . رجّت الجدران وناًى الحنان في قلب المحيط . أحدّق في الشمس فلا أرى شيئا . وهج أعمه يدمي العين البريئة . ساحل بدون أطفال وأنا أشكو هجر ناقتي . مصيري رهينة وقعت في شرك عنكبوت الطفولة . أمر غريب ! إنّ العنكبوت بخيوطه وشفافيّة جسمه هو في ذاكرتي شيء كأنه الروح . لقد شاهدت روح طفل وهي تصعد الى السماء . لقد كانت عنكبوتا بيضاء شفّافة . خفيفة .لا ترى . ابتسامة إبليس . العنكبوت هو أيضا مخزن ذكرياتي ، ذاكرتي وقد اعتزلت كلّ شيء لتنضوي في الطين والغاب . اقفرت طريقي . انعدم السبيل . أنا أمشي ، أعلم أنّها في انتظاري ، ستكون في المكان الذي تصوّرته ، في شجرة طفولتي ، تلك الشجرة التي غرستها منذ أكثر من قرن

مأوى للصمت ، قصرا صغيرا يطارد فيه الموت ظلّه . مكاني المفضّل عندما أعتزل . لن أكون وحيدا عندما يكتمل القمر هذه المرّة . ستحضر طفلتي طاهرة في خمارها . يا لهذا الحجر ترمي به السماء فوق رؤوسنا ! ثقيلا ومغبرّا . سأبتغي العسل والسمن تحت القبّة . سترحل القطط الى الغابة هذا السماء . الغابة ! لم يعد هناك غابة . لم يبق لا غاب ولا صحراء ، لم يبق الّا المرج تعمّره صفائح الزنك والمرايا المهشّمة . مذ أثرت المدينة لفظت بفقرائها على هامش الحياة ، يتطفّلون على العيش . إنّهم اطفالي . أنا لست أباهم أنا السماء التي حملتهم . بشرتي فسيحة . تحوي قرونا من العطف والنقاء . أقاموا حائطا صغيرا حول مرج الحجارة والطين . سورا ضعيفا . سياجا شفافا . حزاما يحتوي فقرهم . كلّ هذه الأجسام المغصوبة . كلّ هذه الليالي المتعطّشة الى الدفء ، ولا من شرارة تحطّم الكوكب ، الكوكب المتهكّم . لكن هذا الحائط فوهة يدخل منها الأسى . لا ، لا تتكلّم عن الأسى . أرأيت هؤلاء الأطفال وقد رمت بهم شقوق الحجارة الى الحياة ، انّهم ليسوا حزنا . ولاحتّى يائسين. لنفترض ذلك ، ولكن كيف تلهو بمداعبة الأمل عندما يغتصب بعضهم الحياة من دون غيرهم ؟ انّ الأمل خزعبلة . كالليل خزعبلة . الليل ، على الأقل ، يسدّ أفواهنا المفتوحة بلقمات من الصمت . أمر صريح . تلتحف الأرض كفنا وتدخل الصمت . قرنا وأكثر . لا ، دع الأمل للآخرين . يولد أطفالي وعلى جباههم ختم الموت . وعلى محياهم بسمة الطفل ، زيادة . هم براء من البراءة . يغتسلون بالحجارة ويتلحفون الريح . الموت ، انتحار معلّق ، مخبوء ، كالضحكة المرسلة . ان قابلت أطفالي فلا تهرب . دعهم يستلبونك بعض متاعك . القضية عادلة . ثمّ ضاحكهم . ستعرفهم فهم لا يحرصون على النظافة . بشرتهم ليست بيضاء . ثيابهم تارة فضفاضة

وأخرى أطول من قامتهم . يعايشون الأفاعي ويضاجعون الماعز . سيحملونكم على البكاء أوّلا ثمّ يسلبونكم كلّ شيء . لن أطلب منكم أن تحذروهم ؛ بل اقتربوا منهم وطاوعوهم الى ما يريدون . جزاؤكم من ذلك ، إن استجبتم ، الفوز ، ببركتي وربّما بقطعة من الشجرة وركن من اركان الجنّة . غاب عمّن كرهم ما أخفت له الزوبعة . فأنا سيّد الصواعق . من ضاق به قبره فليعتل سطحه . من لم يخش دعائي غاب عنه كنه الزرقة في السماء . من كذّبني لم يشهد عودة المهديّ ، المهديّ ! أين أنت ؟ لقد أرسلت اليك بجواد وطفلة . الطفلة مجنّحة . إنّ الناس هنا يحبّون حكايات العودة والبعث . سيكون لك تمرا ولبنا وغطاء من الصوف جميلا نسجته نساء الجبل ، أيا مهدّي ! يا للكذب قد عمّ منذ أن غادرتنا ! أخبار البلاد لا تسرّ . قلّ الزيت وانعدمت الشجاعة ومات الغضب . يبست الأرض وللفقير من الحرّية كلّ يوم صاع ومن دونها لا شيء .

« لبنك الاستقلال ». وكالة توجد بالحيّ الذي اختاره « محا » مقرّا عامّا له . وكالة صغيرة . مشروع عائلي . يعرف « محا » كلّ من يؤم الوكالة ، الموظّفين والحرفاء . يأتيها كثيرا ليتبادل الحديث مع النّاس . يفصح عن رأيه . يكرّره ويبسط حججه دفاعا عنه ، يبسّط المسائل راسما على الارض اشكالا بقطعة فحم . يجوب البنك والحجج تتطاير منه الى الفضاء تغمره .

الاكداس من المال كالجدار السميك يفصل بين الناس . المال يقتل ، يقتل الحقيقة . المال أعمى . لا ! افهموني جيّدا ، لم أقل إنه يعمي ا صاحب المال يرى ولكنّه يدوس البستان المزهر والأطيار . يعنّف الأطفال وعمّا قريب يشرع في تذبيح المجانين . أراد أحدهم ضربي منذ مدّة . خلعت عنّي القميص وقلت له : « اضرب ، اضرب ! » فضحك منّي

الناس ثمّ انصرفوا . وكان صدري محلّى بخمس عشرة تميمة وسلسلتين من فضّة ولوح مكتوب وبعض رموز حملها البحر اليّ . لقد اعتراهم الخوف من ذلك . ان الملايين من الدنانير تقضّ مضاجعكم ، تعدّونها فتصيبكم الحمّى . لا ، بل اكثر من ذلك ، يأخذكم الاسهال . اسهال مسعور ... يتداول على الارض النور والظلام وأنتم في غيبوبة لقد صرتم وقد غاب عنكم طعم العشب وأسراره . آه الارض ، إنها لأجمل من كل مال . الماء . الماء . الماء . عين من الماء تسقي الزمن . وهذا البنك ليس فيه عين ماء . فيه المرمر والفولاذ . بنك الاستقلال . أي استقلال ! أي استقلال هذا الذي عجز عن جلب البحر الى تلمسان ، الى مراكش . أنا الذي انتظرته على صهوة جواد ... على ذروة جبل . ولقد اتفق لي أن رأيته مقبلا وكأنه السحابة وقد رسمت في غير وضوح . رأيت الموج يغمر ساحة المدينة الكبرى والزبد منه يلاصق السماء . لا ، لا زال البحر مشدودا الى الساحل ، في بلاد الصيّادين ، بعيدا عن شجر الزيتون . أوه ، أعرف ذلك ، الاستقلال عندنا أكداس من الوعود . وعدنا جبلا ، وعدنا شلّالا من الضحك المعتوه . على أن الاستقلال مكّننا من جوازات للسفر ، أوه ، ذلك حقّ للبعض منا ، فالمنقل بطاقات هوية بأعدادها الرتيبة وشفرتها .

لقد وهبنا الاستقلال اسما ، قليلا من الكرامة . ولكّننا لم نفتقد الكرامة ولو يوما واحدا من أيام الأزمة . الاستقلال ! لقد أمم الريع وطلى زنك الأكواخ بألوان العلم الوطني ... لا ، صدّقوني ، أنا لا أخون الوطن والحرف . هلمّوا الى البنك ، اسحبوا أموالكم . نعم ، لن يكون هناك أمن بعد اليوم ولن يكون هناك بنك وانا لن تكون لي علبة سجائري اليومية . آه ها ها ! أنتم على علم بماهيّة صفقيت : أتركّكم تروحون آمنين الى

مشاغلكم تكدّسون الأموال ، تجمعون الدرر وتتطهّرون بالحج ... ولكن لا تنسوا « محا » ، لا تنسوني . الأمر بسيط ، امرّ عليكم كلّ صباح ، أحدّثكم قليلا وتعطونني عندها علبة سجائر أمريكية . أنا أحبّ السجائر التي يحملني طعمها الى أبعد الأبعاد . هي تنعم عليّ بذهن يشتدّ فيه الأختلاط وتنمو فيه الفوضى..أحبّ أن تتوقّف في ملكة التفكير . أن تخفل رأسي بشواطىء غير متناهية من الصمت . لأني إن لم أنم ، فذلك لأجلكم نعم لأجلكم أنتم . لقد غاب عنكم الوعي . جهلتم من الحياة كلّ شيء . تظلّون تعدّون أموال الآخرين . وقد كفّنكم الخنوع . أمّا أنا فأرى كلّ شيء . إني أرى الى بعيد . أنت ، على سبيل المثال ، سيكون أجرك من الدأب على ما أنت فيه حدبة ، ثمّ تهجرك زوجتك في رفقة ابن عمّك المهرّب . وأنت ، ان لم تكفّ في الآبان فإن ذاك الاقطاعي الكبير سيركبك كما يركب الدابة . سيقدّم إليك خفيه لتلحسهما ... وربّما لاط زوجتك وقد أولته ظهرها ان سنحت الفرصة ... ستزبد وترغي . ان لهم كلّ شيء . القوة والمال . المال والعنف . ولا يعرفون حياء . تجدهم حيثما قبّلت . لهم المصانع والبنوك هنا والضيعات هنالك . والجمعة ، يوم الله ، للعبادة . أنت أيضا ، أنت ، يا أسمر لان نظره ، أنت حبّي . أنت ألطف من أن تكيل الصاع صاعين . أنا لا أكرهك ولكنّك خيبت ظنّي فيك . أنت ، على الأقلّ ، تجيد الابتسام . تضحك . ذاك كلّ ما تجيد صنعه . ذاك ليس بالقليل ! بعد أن اجتزت امتحانا للحصول على « شهادة الدراسات العليا » ، ضاقت بك الدنيا فرحت تعدّ المال ... تزوجت ، أنجبت زوجتك طفلين ومنحك البنك قرضا لتمكينك من بناء منزل . زوجتك هي الأخرى تعمل خارج المنزل . كبّلتكما الديون المتراكمة فوق رأسيكما فصرتما عبدين . كلّكم مكبّلون . تطفح وجوهكم كآبة . لا ،

لستم من البهجة في شيء يذكر . وما الحياة بربّك ؟ إنّها على كلّ حال ، غير هذه المهزلة المشدودة الى الأمل . سأقولها لكم : كلّما خاطبت الشجرة علمت منها الجديد من الأشياء . مداولاتي معها عليها ختم الكتمان . بالأمس قالت لي إن حصاد هذا الموسم سيكون هزيلا . إنّ هذه البلاد تعجّ لصوصا . هم يسرقون بصفة قانونية . العمليات كلّها تجري حسب القواعد المرسومة او تكاد . لقد نمت البارحة مع عنزة فشكت لي أمرها . ولكنّكم ، يا أسيادي ، لا تحبّون من الشيء الّا النظيف الواضح . لا الضفدع ولا العنزة ولا الشجرة من موالي النظام والوضوح . ولا حتّى الصبية . أنا أعلم لقد أفرطت في الكلام . أقول وأكرّر نفس القول . لكن قلّي بربّك ، ما للشمس يقسو علينا وهيجها ؟ وما للقمر يخلّ بنا فيرمي بدعوانا الى آخر الزمن ؟ لماذا لا يردّ الينا البحر جثث موتانا ؟ لماذا تأنف السحب من حمايتنا وتذبل كلّ هذه النجوم عندما تتوقّف فوق رؤوسنا ؟ لماذا تطلق الشرطة النار على المتظاهرين ؟ لماذا يبحر بنا الموت الى الأفق البعيد ؟ آه ! استعصى عليكم فهم ما أقول ؟ سأكون أكثر وضوحا هذه المرّة : لماذا تربّون العناكب في أعماق حلوقكم وترقصون الأفاعي ؟ لماذا تعرضون عن أكل التبن وقد اقتات منه أجدادنا العيساوية ؟ هم ممّن لا يلج الخوف قلبهم . يحنون على رؤوسهم بالفأس ويشربون دم أدمغتهم . كم أتقنوا البهجة وضحكوا مع الموت من نفسه . ستدكّ الارض بعد حين . بلغني خبر ذلك على التوّ . أنا واثق من ذلك كل الثقة وكلامي وقطعي عليه شاهدة . سأراكم تعدون عراة في الشارع ، مجرّدين من كلّ ما كسبتم وقد داخلكم الخوف وغمركم الدمع . ستحتمون بعدوّكم وترتمون بين أحضانه . إنها الساعة تدق والميعاد يدنو بخطى حثيثة فهذا البلد ، بل كلّ هذه البلدان ، ترتمي في لجّ البحر المائج . والناس وكأنّهم على ظهر سفينة

انكسرت دفّتها فرمتها الرياح الى الساحل الملعون . من الناس من سيموت من سوء الهضم . الذهب أكلة يصعب هضمها . ياالقلّة الحياء !

أنا استحي ، نعم أنا ، « محا » ابن عائشة وابن الثورة ، ابن الناقة التائهة في الصحراء ، من سلالة العنكب الأسود السامّ ، جار العشب المرّ والسماء المكفهرّة ، ابن الحجر والصلصال ، أنا المعتوه ، أنا الفقير ، أنا العاري أمام الناس وأمام هذا الدهر ، أمام البحر امام النار التي تمتدّ اليكم ألسنتها ، أنا الحكيم ، الانسان الضائع الذي سكنه الجنّ (والذي تجرّأتم على سجنه لسرّ يربطه بسحرة الهند كلّهم ويصله بالبلدان المدفونة تحت الأرض) ، نعم . أنا أستحي ولا أقدر الّا على تعرية جسمي داخل هذا البنك فأريكم بذلك الجرب يعلو بشرتي ، هذا جربي ، هذا حيائي منكم وخوفي عليكم ، عليكم لا على حياتي المسكينة التي تمطّطت نائمة طيلة قرن ثمّ استيقظت في الابان ، أخاف من أن أراكم تلهو بكم المشانق في فجر تمتطيه الذبائح . سيشنق بعضكم البعض لأنكم جهلتم مهبّ ريح الخبول العارم الذي سيجرفكم طيّه كما تجرف ليالي الشتاء نبرات ضحكة ، أنا خائف أصرخ ؛ سأستلهم الأولياء الصالحين : تصلني منهم رموز مختصرة . هل أعول في حقول سباتكم القاحلة ؟ إني أسمع صوت المهدي . يقولون إنه سيعود ممتطيا صهوة جواد أبيض مجنون . ستنشقّ الأرض ليبرز كالنبيّ المسلّح كي يثأر لنا . تلك خرافة مزمنة تحملكم على الصبر والانتظار ، الانتظار طيلة حياة كاملة . تنتظرون الموت مقعدين ، تحرقكم الشمس وقد ثنيتم الأرجل وظهركم الى الحائط ورؤسكم بين أيديكم . سيقدم الموت مثل ريح الصباح الخفيفة . سيقدم في موكب يعلوه الصخب وتغمره العبرات ، سيغزو كلّ مكان فيعمّ الطرقات ويطغى على ممرّات المستشفيات المتراصّة بالأجسام الفازعة المهزومة . سيقدم الموت ضاحكا كما

اعتدتموه . وما المال إذاك ؟ الأكداس المكدّسة من المال ، الملايين المقروضة ، المنازل الفخمة و « المضمّات الذهبيّة »؟ عبثا تحاولون جرّها الى حيث أنتم صائرون ، فالموت لن يمهلكم . وما عليكم من ذلك ؟ لقد نلتم من الحياة النصيب الوافر . ألم تتمرّغوا في السهل منها والمبتذل بين خيوط الذهب ودموع الحرقة . حياة عادية بمواليدها وحشاياها المريحة ، بالباهت والصارخ من الألوان . حياة تدعمها المسلّمات ويرفدها الافراط في حبّ الذات انه الدرن . آخر ما استوردتم من أوروبّا ومن بلدان أخرى . سيجدكم الموت وقد نظرتم المعجزة طويلا مصدّقين كلّ ما يقال لكم أو متظاهرين بذلك . إنّكم لتختنقون داخل أقفاصكم البلّورية وأنتم تتثبّتون في « الفاتورات » . أمّا الموت فإنه سيمرّ من هنا ولكنه لن يترك « فاتورة » . صوت ولا أثر . مات فيكم حبّ الاطلاع فلم تحرّكوا ولو مرّة الغدير الجامد الذي تقبع فيه طمأنينتكم . ربّما فعل أطفالكم ذلك ... لكنّ الخوف يشدّ أنفاسكم ، كالرأفة أو كالأفعى ، بل هو كأفعى الرأفة تدير ليّاتها حول أعناقكم وتمنع عنكم النفس فتظنّونه حلما مرعبا أو توعّكا بسيطا مصدره الحرّ الشديد ، حدثا تافها وسط حياة مترعة بالرضى ؛ انّكم تقبلون كلّ شيء شريطة أن ترتفع عنكم هذه اليد وأن تنسحب هذه الدابّة ... تعالوا معي . اتبعوني الى أعماق الغاب .ناموا الى جانبي وانصتوا الى صوت الغاب . كلّ شيء يكلّمني ؛ وما عليّ إلّا البلاغ ؛ فما أنا إلّا رسول . عندما أقصد الأحياء الأنيقة يمنّ عليّ الخدم بالفواضل من الأكل عوض أن يصغوا إليّ . وما سخطي من باب صدّ الاهانة ، فأنا لا أشعر بالاهانة أبدا . ولا تقل انّي غاضب فأنا تجاوزت حدّ الغضب . كلّ ما في الأمر انّي أطعم الكلاب التي تمرّ قربي . فتثور لذلك كلاب « الفيلا » وتأخذ في النباح . ذلك أنها تحتجّ على تواجد كلاب غريبة في ميدانها . إنّ

لي مع هذه البهائم عهداً لن أبوح بما ضمّن ، ذلك أني أعلم أن من بينكم من خسّ ووشى . والخسيس مسكين عاجز عن فهم ما أقول . تصوّروا ولو للحظة واحدة أصحاب هذه « الفيلات » التي تدور حول نفسها وسط الحدائق وقد عضّتهم كلابهم فتسرّبت اليهم عدوى داء الكلب الخالص الذي أحمله داخلي منذ أن جرح الفرنسيون أمّنا الأرض ، أي من قرن ونصف القرن عمّا قريب . انّ لي من الدراية ما يكفي لتسيير العملية ؛ عليّ المحافظة على سلامة الأطفال ولو نزلوا من بطن عفن . سأعرض عليهم بديلا يغريهم بترك هذه الحياة ، نزهة أخرى عبر الزمن وعبر مرج المرايا .

.

الاستقلال ! صحيح انّه كان للبعض صفقة رابحة وبالنسبة لآخرين من الناس كان مسألة حياة أو موت ، مسألة كرامة . أناس فقدوا هويّتهم ، أضاعوا أرضهم ، أفرطوا في حقّهم في اللسان ، أطفال بدون مستقبل ... كلّا ، لن نطرد من التاريخ أو نموت ... وعانق الرجال السلاح ... فمات منهم من مات ... وأثرى من أثرى ... أتشهد ما أشهد من غريب الأمر !؟... لي من العمر مائة وأربعون من السنين . لقد رأيت كل شيء وعلمت كلّ شيء ولست إلا عابر سبيل . سأعود الى النوم بعد أن تحصل الكارثة ؛ سأرقد قرنا أو أكثر حسب تقسيم للزمن خطّطه الصالحون والضفادع . الآن يقطن مولايا ، سيد الشدّة ، زاوية وليّ يهودي . أنا أجلّه كما أجلّ شجرة « الكلتوس » التي ترعاه بظلّها . اذا سأصل نفسي بجذورها وسألتمس شعري من منام الوليّ اليهودي بعد حلول موعد انتفاضة الحيوانات والأقمار وبعد انفجار الغضب العارم في الأجسام العارية. على ضوء الفجر الأزليّ ، في المغارة ، يداعب الزمن جبهتي وتأتي العصافير

جسدي لتبني فيه أوكارها ؛ العشب الحنون ، العشب المخضرّ يغمر هذا الجسد ، يشدّه الى الخضرة بجذوره و يشمله بعطفه . ولا يجسر النمل على القرب مني . حدث أن اجتمع بعض النمل على ابهام أحد أصابعي ... فانتابه من ذلك مرض فضيع ، يالها من قصّة مدهشة ! لقد أخطأ النمل فريسته ليتحامل على جسدي فتقيّأ من تقيّأ ومات من مات . هل سأحضر الزلزال الذي سيبتلي البلاد ؟ سأتابع سير العمليات من أعلى شجرتي . ها أنا ذا أرى سلفا كلّ هذه الثروات المبسوطة في وضح النهار أمام حشد من الأجساد وقد جرّدت من كلّ شيء إلّا من الأسنان تطبق على التراب فتزحف الأجساد متراصة نحو المساجد . ثروات كدّست على جناح السرعة في خضمّ أيّام العطاء المتقلّبة . يحميها النظام والقانون وتسهر عليها القوّة وتأويها البنوك . أما أنا فلا تحميني إلّا الأرواح . أنا أصرّ القول : أنا وحيد . وحدتي مجرّدة مطلقة ... لقد شهدت الكثير من الأحداث حتى أسكت عن الكلام ... أتكلّم،أتكلّم ، أعول ، أغنّي ، أدخّن ... ولا حاجة لي الى الطعام ... أدخّن كي أبعد العار عن فكري ... أمشي في المدينة التي لعنت بسبب المال ، بسبب الجبن والنذالة ؛ مدينة من الفولاذ ومن الرذائل التي لا تذكر . أتفل على هذه المدينة وعلى من دفن نفسه داخل « الفيلات » المذهّبة التي تعرض عن وجه البحر . يا للعار ولّوا وجوههم عن البحر وجمّدوا خرير أمواجه على أشرطتهم حلية لمسابحهم الزرقاء ، الخضراء ، للاسمنت ولنور النيون المزيّف . مدينة أعرضت عن البحر مهملة جذورها الى الأرض الخراب ، جذورها المحروقة . مدينة مشنوقة الى الغرب يصلها به خيط واه . أقاموا جدارا حاجزا ، جدارا عاليا يواري أكواخ أطفالي عن الأنظار ، أطفالي المعوزين ، العراة، العراة، المنسيين في الأرض . واه ! كم تقسو الحماقة على العزّل . انها تذير الجرائم والزلّات

المتراكمة . من هذه الأكواخ ، من هذا الزنك ومن هذا الوحل يبرز رجل .
ولن يكون المهدّي المنتظر بل رجل أشدّ منه بأسا وبطشا رجل لا يصدّق
ببعث الأنبياء . أخبركم . هذا الرجل سيكون طفلا من أطفالي . ولن
تجدوني يومئذ لكي اهدّىء من روعه وألجم غضبه . ستكونون وحدكم أمام
طفل يعانق بندقيته .سيعرف كيف يقتنصكم ولو حتى من أعماق
دهاليزكم ، من بين الحجارة وتحت أعشاب دور هنائكم . ستواجهونه
لوحدكم وقد أذهلكم الارتباك ، وقد هجر الايمان قلوبكم وسكتت السماء
عن تضرّعاتكم وتخلّى عنكم رسولها . أقولها لكم قولة : هذا الرجل الطفل
سيتمخّض من النظرة المزرية ومن الصقيع، من الأمل المخدوع ومن القرن
المدفون تحت لجّ البحر المتلاطم .وستقوم غابة ، غابة فسيحة ، تتحرك
بخطى وئيدة ثابتة ، غابة تزحف زارعة وحوشها وأشجارها المترامية ، غابة
تتقدّم كاللحن السمفونيّ وقد دقّت ساعة الثأر الذي ما بعده ثأر .
سيكون مقطعا موسيقيًا جميلا وبطيئا . أنا أعلم ذلك . لقد قضي الأمر .

لكنّكم لا تنصتون اليّ ! أخذتكم الغيبوبة ودفنتم رؤوسكم في خضمّ
الأوراق النقدية ؟ لقد فقدتم السمع بعد وعمّا قريب تعمهون ثمّ تصيرون
الى الخصاء فتطمح فيكم نساؤكم ، لا كلّهن ويا للأسف ، البعض منهنّ
سيلحقن الغابة الزاحفة . لقد هجركم أطفالكم بعد ولكنكم لا تعقلون .

لم يكن لا لعائشة الخادم الصغيرة التي اقتلعت من قريتها اقتلاعا ، ولـ « دادة » الأمة السوداء التي اشتريت في بداية هذا القرن من بلاد السودان الحق في التعبير عمّا يخالجهما في منزل الأب الشيخ . البكم والعزلة نصيبهما .

« محا » هو الذي سيلتقط صوتهما . « محا » هو الذي سيصل بين هذين الصوتين وبيننا .

لن يكون لعائشة صوت . ذلك ما قرّره الأب الشيخ . بكماء . ذلك مصيرها، عينان فتحتا لتشهدا الغضب الهائل يتملّك البهلوان ويدان شدّهما الوثاق تحت الفستان . ١

كانت عائشة سلطانة الليل . الليل مرتع وجدها . مركض جنونها . وهي البكماء الحاذقة . ستكون دعامة الدار الكبيرة : قصر ابتناه الأب الشيخ على ضفّة النهر اليمنى . نهر يجرف الأدران والفواضل .

عائشة من أصل ريفيّ . أجّرها والدها عند الأب الشيخ . كان لها من العمر اثنتي عشرة سنة عندما كلّفت بالقيام بشؤون المنزل ، أو بالأحرى بتعلّم ذلك . تقلتها الحياة في سطل ملىء ماء قذرا؛ ذلك مصيرها . يعجّ القمل في رأسها وتتنفّس الأرض الجافّة عبر جسدها عيناها سودوان . كالحلكة سوادا . يختلج فيهما النور . نظرة تائهة ، حائرة ، تخاف من أن تقع حيث لا يجب أن تفعل ؛ تخاف إيذاء الأشياء فتنثني عنها . وما حدّقت عائشة قطّ في مرآة . غسلوا جسدها . حرقوا أدباش البنت الريفيّة . ثم كسوها . لا بالجديد من الثياب بل بما أعرضت عنه أبنة الأب الشيخ حتى اللباس . عائشة في أوّل محيض لها خائفة لا تتكلّم . لا تردّ إن كلّمت . لا تريد ذلك . تمكث الساعات الطوال جامدة كالصنم أمام سيّدة المنزل التي كانت تسهو عن تكليفها بأيّ عمل وتسهو كذلك عن إطعامها . لم يكن لعائشة وجود فعليّ في المنزل . كانت الخادمات الأخريات يتجاهلنها.

ستنظّف عائشة زجاج النوافذ والأبواب . صغيرة خفيفة كالنحلة . ستطير من نافذة الى باب . ستنزع الغبار . تبتعد عن ضجيج الصباح .إنّ زوجة صاحب البيت تصرخ إن تكلّمت : تقذف بالأوامر الى فيلق من الحشم .

لا تنام عائشة الّا وقد تقدّم بها الليل ساعات ، وان استيقظت ففي ساعة متأخرة من الصباح . تلك سلواها . وإن تناساها الآخرون ففي ذلك لها غنم كبير . وسلطة على الزمن تصرّفها كيفما شاءت .

وعندما يجنّ الليل ، تنطلق . تطير . خطاف الفصول الأربعة . تنطلق الى الغاب ، تشعل نارا وترقص . تلوي جسدها أمام الشجرة محاكية بذلك حياتها . أحيانا تستلم الى النوم قرب الشجرة . وتقسم والنار قبلتها أن لتكوننّ وفية لعالمها الصغير . بضع خطوات راقصة . ضحكة تشقّ الليل ، طرفة عين نحو النجوم القريبة منها : عائشة تؤمن أنه باستطاعتها ملامسة النجوم وآقتطافها كثمر الجنان الطّيب . تلك براءتها . طفلة ولدتها التربة والصخر في يوم جفّ وتحت شمس كالحة . طفلة من الصمت تجدّد لقاءها مع الغاب ؛ مرآتها . طفلة من الصمت المدّمر ، تحنّ الى الأرض ، إلى العشب ، الى الليل . هي أيضا كانت تولي الزمان ظهرها . هي لا تتقن الحساب . هذا الفصل تليه الغمامة المرعدة . زوبعة تبشّر بكلمة السماء . كان بودّ عائشة لو مكثت وقتا أطول في رحاب الغاب . جسدها يرتعش بردا . تقول في نفسها :

عندما يعلو القمر هذا المكان يغمرني البرد . يتملّكني

النقصان . تعوزني نجمة أضعها بين نهدّي . لا شك أن ذلك
من أثر الجوع أيضا . إن جسدي غير مكتمل . ينقصه الكثير
من الأشياء ولكنّي تعوّدت ذلك . غريب ! أبرقت الشجرة
ولست أدري بما أجيبها . ترى من أنا ؟ حقّا ، من هذه الطفلة
التي تتكلّم عبر هذا الجسد النحيف والتي تحلّق مع الريح
كورقة من أوراق الخريف ؟ أين ذهبت السماء وهي التي تجيبني
إن تساءلت ، أين ذاك الجواد الذي يعدو في رأسي ؟ أأكون أنا
ذلك الجواد ؟ ولم تنآى السماء عندما أشعر بالحاجة الى مداعبة
زرقتها ؟ كلّ هذا يفكّرني بجدّي . لقد كان يهمل الصلاة .
فاجأته في يوم من أيام رمضان وهو بالحقل يأكل ولمّا يحن موعد
الافطار . طالما ردّد لي أن السماء نائية وأن وطننا الأزليّ هو
الأرض . وذات صباح ركب حماره وانطلق . لم يره بعد ذلك
أحد . يقال إنه انقلب جوادا أو فرسا وانه يحرث الأرض
القاحلة . كنت أكنّ لجدّي كلّ الحبّ . كثيرا ما اشتدّ غضبه
فأخذ يلعن السماء التي جحدت عنّا غيثها . يسبّ الفلّاحين
الصابرين على ظلم السلطة ، المستسلمين لبأسهم المغتصبين
بآسم الوطن وبآسم الله . كان جدّي محترما مبجّلا لأنه ما نطق
الّا بالحقّ . مجنون الفلّاحين الصابرين على ظلم السلطة ،
المستسلمين لبأسهم المغتصبين بآسم الله . كان جدّي محترما
مبجّلا لأنه ما نطق الّا بالحقّ . مجنون . يتبعه الصبية حيثما
سار . لم يكن يحبّ أبناءه وخاصة منهم والدي لأنه أوّل من
انتزح عن أرضنا الى المدينة . جميع أخواتي يعملن عند بعض
العائلات بالمدينة . أبي . أظنّ أنه قد باعني . باعني أو كراني

بالمشاهرة . لا علينا . ادّخر بذلك طعاما كنت سآتي عليه ووفّر دخلا جديدا . هذا رغم كوني صغيرة الجسم . أكتفي بقليل من العشب وزيتونات معدودات . على كلّ حال فقد كانت فرصة للمساومة الشديدة على ما يبدو . لو كان جدّي المجنون حاضرا لمنع والدي من الدخول في كلّ هذه المعاملات الخسيسة . وبالفعل جمع جدّي ذات يوم أهل القرية ليعلن أنّه بريء منه وممّا يعمل . لقد كان الموقف رائعا فاحترام الوالدين عندنا كأنّه الدين . لقد وصل به الغضب حدّا بعيدا فقال :

أرجع اليك هذه الكارثة ، هذا الرجل الذي عجز عن صيانة نصيبه من الماء ، هذا الذي لم يقدر على القيام بحق الرجولة في رحاب الغاب . دونك وإيّاه ، إنّه ابن عاق وأب بلا حنّ يبيع أطفاله لأعيان المدينة . أنا لا أبتهل الى الله . ولا الى الشيطان . سأقصد قبره كلّ يوم جمعة لأبول عليه وسأشهد يوم موته ولو انتظرت قرنين . لي زاد من القرون يكفيني لأشهد كلّ الكوارث . لا تقتربوا . اطردوا هذه العنز الجحود . إنها لا تدرّ لبنا . لا تظنّوا أنكم قادرين على سجني . أنا مجنون . ولمّا كنت المجنون الأوحد فلا بدّ أنّي على صواب . الاجماع يقلقني . لقد أجمعتم على إسقاط حقّكم في نصيبكم من الماء وفي أراضيكم لكي ترحلوا الى المدينة تنامون على أرصفتها . كلّكم من صفّ واحد : صفّ الأمل القزم . لذلك أنا أعشق جنوني وسأرحل لأعيش في حياه . الحقد ينمّي في المرء الضمأ الشديد . ستكون الكبوة وسيسقط « محا » لابسا كلامه . سأهوي ركاما من الأسماء

ومن الأفعال في صلب الخطاب . ولن تفقهوا شيئا . فكلمتي إن تقدمت تمحو أثرها . سأذهب لأعيش بين الأطفال . وإن أخلّ بي اللسان في المدينة فأنا أعرف كيف أحبط مسعاه . سأسقي كلماتي سمّا يأتي عليكم ومفرقعات تهزّ أهل المدينة . سأزرع الشمس والهمهمات حتى يكلّمني البحر مائجا ، حتى تصغي اليّ عيون الماء ، حتى يخرج الانسان من حالة القبوع . سأرقص على الأمواج وأدمدم كالسبع يأكل ما وضع . رغبتم عن هذه الأرض مستقبلا لكم ؛ لكنها هي التي تلفظكم بعيدا عنها وهي الأم الشمّاء ذات الأنفة . لستم اهلا لحرمة الحجارة وشجر الزيتون . ما ضرّ الزمن يعلو الجبين إن لفظتكم هذه الأرض كالجسم يرمي بالقيء ، فأتركوها لأطفالكم . سيحسنون حبّها وربّما ماتوا فداء لها . أنا أعلم ، ليست بنا حاجة الى شهداء ولكن إلى القمح والماء . اغربوا من هنا واتركوا الأطفال على جناح الطير . أنتم تحسّون بريح الشرق تهبّ . أخذكم البرد . اعتراكم الخوف . ستدفع بكم هذه الريح بعيدا عن العار . أحبّ الريح عندما يشتدّ عتوّها . أحبّها عندما تخلع الشمس عن عرشها وتحوّل النجوم عن مسارها . أحب الريح التي تذهب بالذباب وبالاحتقار . إني لأسمعها تعصف نحونا ، أتهيأ لذلك كالممثّل يطلي أقنعته . قليلا من الحزم ، يا من لعنهم القمر ! قليلا من اللذّة ، أيّتها النسوة الغائبات ! يا من وئدن بين الجدران ، أرسلن الى الحقل وعلى ظهورهن حمل صبيّ ، يا نسوة الصمت . لماذا بريّكن يفلحنكنّ في ديجور الظلمة بذكور من خشب ، ولا حنّ ولا عطف . يبوؤونكنّ عرش النشيد ونصيبكنّ من الزمن الاحتقار والنسيان . أيتها النسوة تتبّعن خطواتي واقتفين أثري نرفل في جنون الحبّ والضحك . سيحيا الحبّ فينا . أيتها النسوة ، يباعدون سيقانكنّ منذ قرون . لا يتكلّمون . لا يهمسون ببنت شفة . صرختكنّ مكتومة

وسيقانكنّ مرفوعة على أكتافهم. تزّودنَ بشفرات الخلاقة لتمزّقن وجوههم ويقينهم ولا تأخذنّكم رأفة بهم . أما أنا ، فإني أسمع صرخاتكنّ . أستيقظ مذعورا في الليل فأفكّر فيكنّ . محرومات . مفلوحات ، محروثات ، حرثتكنّ قرون وقرون من الصمت ومن العنف المدغّم بالتشريع الذي لا بعده ولا قبله تشريع . كم فكّرت في كلّ هذه الأجساد المقبورة . المعتّقة ، المشوهة وحشة وحرمانا ... لماذا تنغلق هذه الأيدي أمام المداعبة ؟ ما فائدة هذه الطقوس التي تقام لتكريس انتفاء ذاتكن ؟ تشاركن في الحفل وأجسادكنّ عدم . ترقصن لتنطّ ايور الضواري ؛ أناس يسعدون بالاستمناء باليد عندما ترعشن بطونكنّ وأردافكنّ . ويحرقون البخور مع ذلك . يا للسخرية ! ينساب نور الزمن بين أصابعكنّ وأنتنّ توارين أوشامكنّ ،تشتغلن بخدمة الأرض نهارا وتصلبن على أكتاف الرجال ليلا . تمشين وحزمات التبن على ظهوركنّ وقد يسبقكنّ الرجل على ظهر بغلة . آه ، أيتها السماء ! إني لا أفهم شيئا من نكتة المستقلين في الأرض . ماذا تفعلن باللذّة ؟ عقدتنّ العزم على غضّ البصر دونها موليات أجسادكنّ الى حافة الهاوية . متأهّبات على الدوام للقيام بخدمة الأرض أو لخوض الحرب . هذا صحيح ، لقد خضتن الحرب ضد الفرنسيين . ناجعات ، مقدمات في عمليات خالدة الذكر . البعض من أسماء النسوة لا يزال وشاحا على جبين السحب . وبعد تحرير البلاد أقاموا الجدران سجنا لكنّ وأوصدوا الأبواب بالاقفال والمزالج . وحتّى السطوح عليكنّ محظورة . منطقة ذات خطر كبير على أمن قطعة الخشب الذكر . لنضحك . لنضحك . أنا أضحك وأجهر بذلك . إن بين الرجل والمرأة في مجتمعنا شيئا من التصدّع . الاسلام . يقولون إن ذلك مرسوم في الكتاب العزيز . لا ، بل إنهم يقوّلون الكتاب ما أرادوا . الحقيقة أنّ في الأمر حرجا . النساء من

الرجال في منزلة أقلّ . قيلت وكرّسها الفعل . لا . أنا لا أقرّ شيئا . أنا أنظر حولي بادىء ذي بدء . يجب أن لا نقبل أي شيء بدون تروّ . ولا حتى بعد التروّي . القوانين . حكاية قديمة . لست معكم في ما تذهبون اليه . كثير من الحبائك الخفية وراء كلّ هذا . نعم ، صلة الرجل العربيّ ـــ البربريّ ـــ القبائليّ بابنة أرضه صلة معلولة ... سوء تفاهم . عظيم مثل الباخرة التي أبحرت بي الى أمريكا . انّهم لينقضّون عليكنّ كأكياس من الذرة لأن ذلك حق لهم عليكنّ . يحرّكون إلياتهم ويسكبون اللعاب من ذكورهم ومن أفواههم . فتداخلهم الغبطة وقد قاموا بفريضة البعل . والغريب في الأمر أنّهم يقومون بفريضة الصلاة قبل ذلك ! يولّي المرء منهم وجهه قبلة مكّة فيقيم صلاة ليلية قبل أن يلج فرج امرأة لا تجرأ على ملامسة جسدها . يا لها من طقوس ! يا له من عار ! « نساؤكم حرث لكم ».. قول حقّ. المرأة حقل. لكنه حقل من تربة حيّة لها على الرجل أكثر من الفلق الأعمى وزرع النطفة البارقة . أيتها النفوس المدلهمّة ، عجزت عن الخروج من المتاه . لو عاد المهديّ .. لحلم الأرض تدكّ دكّا . إعصار مذهل يهزّ الأرض الدنسة . إني أعدّ الأقمار والقرون . أفواه نهمة . آذان ترجح بأخراصها وأياد مرسومة . طلاسم لا تحصى. شعب من الأشباح . سأذهب لزيارة المنجّم الحكيم . إنه يتظاهر بالتعبّد . أجل ، أجل ، إنه يتظاهر بذلك . إذ أنه يحبّ الكسل ومداعبة الحسّ سواء جاءت بها الريح أو الغربة . لكلّ شيء ، أريج خاص وطعم مفرد للحرّية . ليست للمنجمّ الحكيم سلطة على جسده . فهو يفلت من قبضته اذا اختلى لقضاء الحاجة . إنّ جسده ليعذّبه تعذيبا . ولكن الحكيم يعطف على أسته . للحكيم مرآة لا تفارق جيبه تمكّنه من مراقبة دبره وهو يدفع بالبراز الى الخارج . لا تتعجّبوا ممّا أقول فأنا أعلن كلّ شيء ؛ إنّي لأغرق

في ما يصلني من وحي وأخبار . ها أنا أرفع ستر المرج فأرى قطعة من الأرض .

أرى أرضا مهملة زرعت قوارير بلاستيك وحطام خزف . أرض تنفّست الموت ولفظت النور . ها هنا يولد أطفالي ويموتون . يموتون والضحكة تعلو محياهم مثلهم في ذلك كمثل شعب يتلاشى وقد وقع في شرك العنكب السّام . على هذه الأرض نصبوا منازل لهم من الورق المقوّى ومن الزنك . هذه الثقوب . هذه الشقوق . على الحواجز الواقية من الريح . بالرأس . أتحدّث عن بلد تتكاثر فيه الشقوق و « المضمّات الذهبية » . أتغنّى بشعب يغيب في هذه الآونة ولفترة قصيرة وراء الأسوار . شعب سيزحزح الأسوار يوما الى الأمام . أقول : شعب لا حلم أو خيال ، شعب يجري فيه ماء الحياة ويعرف الصبر والغضب ، شعب يتحدّى التقديرات وينزل الى الشارع بأطفاله العراة وأشجاره المعلّقة بالسماء . له أوقات صمته ، له صفحاته الخاوية ، له فترات ركوده وله الزعقات يبعث بها من غياهب الأرض فتزعزع يقين من ضبط كلّ ممكن . إذن هذه هي التربة الكادئة التي يولد فوقها أطفالي ويموتون . ان مثل هذه القرى القصديرية لصورة صادقة للقسوة التي تسلّط على أناس فرّق بينهم وبين الحياة . فضاء مشحون بالغضب الذي لا ينذر اذا أنفجر . أقولها لكم . أنا تائه . ولا لحن يرافقني . زاخر الجسم بالصيحات المكبوتة . أتيه في دغل الكلمات والحجارة . الأنفة فوق كلّ اعتبار . والشفقة في أدنى السلّم .

هكذا تكلّم محا ...

لم أعد أشعر بالبرد . استرجع الغاب دفأه . إنّ كلمة «محا» هي التي حملت الطيور على السكوت . إنّها تصغي إليه . ها هي الآن تزقزق . أوراق الشجر تتحرّك . إنّه نسيم الصباح العليل . سيعود محا . ربّما هذه الليلة . لو قدم يوما الى منزل الأب الشيخ لألقى خطبة عصماء . أنا أعشق نوبات غضبه . كم أودّ لو رأيت الأب الشيخ ينحني لتقبيل يديه . سيقدم يوما ما . سأستحضره ذات ليلة الى الغاب . سأكلمه من داخل الشجرة التي يجلها . سينفذ أوامري ولن يرى وجهي أبدا . إني لأحبّ هذا النور لم يرتحل الليل بعد ولم يطلع النهار هو نور الحلم والتواصل المكتوم . لحظة غريبة . إني لأرتعش . يجتاحني عارم التأثر لهذه اللحظة . إنّها النباتات والأشياء تستيقظ في لين وهوادة . إنها كذلك عودة طعم المرارة . حان وقت الرجوع الى الدار الكبيرة . بعد حين يستيقظ الأب الشيخ للقيام بصلاة الفجر . سأهرع لألوّث ماء وضوئه .

أنا ، « محا » ، أقول لكم :

عندما تداخلني الشفقة يتخاذل فيّ العزم وتختلط أمامي سبل أفكاري . الشفقة هي تسوّل البصر .

الشفقة ! يجب أن ندق عنقها ! ها أنا الآن أضرب في دغل الانسان . لقد عرفت من الناس رجلا حرص على القيام بفريضتي الصلاة والزكاة . ينعم بالسلطة ، ترعاه في ذلك بركة السماء ؛ انّها من الشيطان الذي تربطه به صلات غريبة . انّ له ، على ما يبدو ، مع الشيطان علاقة خفيّة غامضة . ليس يعلم ذلك أحد . ولكنّي فاجأته مرّة بالغاب يخاطب جذع شجرة غطّاه السواد . أعلم أنّ ذلك المكان هو وكر الخيانة المفضّل . على كلّ حال ! هو يحكم معتمدا في ذلك دعامتين : الاسلام والدراهم . لقد قام بحجّته الأولى على ظهر جمل . كان بإمكانه أن يمتطي الباخرة ولكنّه رغب في محنة الجسد قبل الوصول الى قبر النبيء . المحنة لاستحقاق الثواب . الصلاة لكسب الغفران . تناسي الذات بين أحضان جبرائيل

بالطواف مع الحشد من خلق الله ؛ أو الارتحال ، عملا بالسنة النبوية ، على صهوة البراق . لقد لقي الأب الشيخ العذاب الكثير . كادت تدوسه أقدام الحجيج ولكنّه عفس أجسادا أخرى لم تقو على مقاومة الغمر ولا على احتمال الحمّى والانفعال الشديد . وفي طريق العودة اقتنى حريرا وألماسا وقدرا من بخور الجدة ومن عطر الجزيرة وامة زنجيّة من شمال السودان . ذلك أن الأب الشيخ ، وقد نال منه العذاب قسطا ، لم يكن ليقدر على احتمال الحرمان الجنسيّ مدّة طويلة . وعلى كلّ حال فذلك أمر مباح : سبيل الى مقاومة البغاء واجتناب الزنا . أو ليس الأفضل أن يتزوج الانسان امرأة ثانية بدل أن يزّج بنفسه في متاهات الرذيلة ؟ ! ... اذن رجع من الحجّ بأمة . إسمها « دادة » . وليس ذلك بإسمها الأصليّ .فـ « دادة » إسم يطلق على كلّ وصيفة اجتلبها أب شيخ من احدى البلدان الافريقية . كانت تحمل أمتعة سيّدها ولا تنبس ببنت شفة . بكماء . نعم ، هي ايضا .

لقد شهدت عودة الأب الشيخ من الحجّ . رأيت وسمعت كلّ شيء . بدأ الجميع ينتظرون قدومه منذ شهر انقضى بعد . جميع افراد الأسرة يعدّون الأيام . لكلّ طريقته في ذلك . كان من المفروض أن يصل في بحر هذا الشهر اذ أن جارا له كان قد انطلق الى الحج قبله بثلاثة أسابيع عاد منذ قليل . لم تتوقف الاستعدادات ولو لحظة . غسلت الدار من أسفلها الى أعلاها ؛ طليت السقوف بالجير ؛ هذّب البستان ؛ نظّفت الزرابي ؛ أبدلت الحشايا صوفا جديدا ؛ أغلقت القاعة الشرفية للاستقبالات .. كان الخدم والحشم من الذكرين في حالة استنفار . على اتمّ الاستعداد ليلا نهارا

لا بدّ أن يكون الحفل على درجة من الروعة تليق بصيت الأب الشيخ وبثروته . هذه العودة هي الحدث الذي يتطلّع اليه كل الحيّ . وجب استظهار البذخ . نصبت زوجة السيّد المطاع عينا تستطلع في مدخل المدينة ، أرسلت الاستعداءات الى أصحابها ، استجلبت خرفانا من الضيعة وظلّت ترقب فوق السطح .

وصل الحاجّ عند مطلع الفجر . والكلّ نيام . كانت مفاجأة مريرة . وحطّت « دادة » الحمل عن الجمل ثمّ جثت في ركن صغير من أركان البستان . مضنكة خائفة . كانت لا ترفع عينيها. جمّعت أطراف جسدها حتى صارت كومة صغيرة تنتظر . لقد هزل الأب الشيخ من أثر كلّ المحن التي مرّت به . ولم يوجّه الخطاب الى أحد . طلب « دادة » واختلى بها في غرفة الاستحمام . كان عليها أن تغسل جسمه وأن تحلق ذقنه . استعملها كذلك بدا يستمني بها فلّما كانت اللّذة صوّت ملء حنجرته . هرع لصيحته كلّ افراد الأسرة . كان من عادته أن يضرب « دادة » . وفي تلك الليلة ضاجع زوجته الشرعية : جماع العادة المبتذل . فلمّا انقضى من الليل زمن ترك فراشه وراح يوقظ الزنجيّة التي كانت تسقيه من اللّذة ما يؤدّي به الى حالة الجنون الضاري .

كانت « دادة » فائقة الحسن . لسيّدها عليها حقّ الملكية المطلقة ، فهي أمته . كانت كيس لذّة يقلّبه كيفما شاء . ينصّبها على ذكره وقد نطّ كالآلة تؤدي وظيفتها وقد اكتمل نظامها . هي له جنّة صغيرة يزرعها عملا منكرا . اعتاد ان يعصّب لها عينيها كي يحسن له الاستسلام الى ممارساته المخجلة . يضربها فيعوي من أثر اللذّة . الأب الشيخ رجل أهواء :

إذا اختلى بـ «دادة» فلاستباحة أكبر المناكر . كانت عرضا لكلّ نزواته يرغمها على الصلاة عارية فيقسو عليها وهي في تلك الحالة وقد طغى الجنون عليه . كثيرا ما بكت « دادة » . نصيبها خليط من الوحدة والعبودية ومن المذلّة والعار . لهذا الرجل عليها كلّ سلطة ، له أن يبقيها على قيد الحياة أو أن يقتلها ، وله أن يبيعها أو أن يشتريها وله كذلك أن يطلّقها أو أن يجعلها مركبا لأهوائه التي لا تحصى . وعلى « دادة » في كلّ ذلك أن تخضع أو أن تموت . أن تقتل أو أن تقتل . التفكير في قتل الأب الشيخ ينهك كلّ مداركها العقلية . طعنه ثمّ الموت . كانت تمعن في السكوت ؛ أحيانا تئن وتذرف دموعا صامتة . وأحيانا أخرى تهمهم بكلام مبهم من لهجة التخاطب في بلد تربته شقاء . ولا من سميع فهيم. ولم يركب ولو شخص مشقة الوصول الى ما ذهبت اليه في كلامها . على وجهها من رواسب الحزن والكآبة ما يناطح السماء . والعين صافية من كلّ بادرة حانقة ، إلا علامات أخرى ، علامات يصعب تحديد معانيها ، علامات الاعراض واللامبالاة . شيء يصعب احتماله ، بصر لا يقوى على مجابهته أحد . ذلك أن وراء هذا الستار تمتدّ غابة وتتّقد حرائق ، تتوهّج شموس ويتمطّط قرن من عبوديّة شقّت وطالت . وما الاستكانة الّا ظاهر الشيء. كان الحقد والعنف المخزونان في هذا البصر الغريب يثقلانه. هذه هي «دادة»، إمرأة بيعت الى سجن مؤبد. قدمت من السودان ففقدت اسمها. وإذا جنّ الليل، تصعد « دادة » إلى سطح الدار وتقصّ على النجوم ما مرّ بها من أحداث خلال حياتها :

فاطمة الزهراء اسمي وهو الى قلب الرسول حبيب. اسمي

زهرة، اسمي عنبر أيضا. تلك حال الزمن. هذا هو العصر. ان الزمن هو الذي قرّر مصيري . وتوهّج الشمس الضارية هو الذي قذف بي فوق صخرة ، في مدخل الحياة؟ على أبواب الموت. كنت في ذلك الموقع في كفن من الصمت، جسدي مطيّة للخيال والاشباح، وكأنّي وكرها تروح فيه وتغدو . ظننت أن الحاجّ سيأخذني معه الى مكّة . اذ اشتراني وهو في طريقة اليها. مكثت شهورا أترقّب ، قابعة فوق تلك الصخرة ، صخرة الدهر ، صخرة الخبول . أبحث له ولم يحضر . وترقّبت طويلا . وحيدة . رغبت عنّي أسرتي ، وخاصّة منها بعل أمي فكنت أعيش ممّا يمنّ به عليّ المحسنون . أترك العنان لأسراب خواطري فتتعلّق بخيال مولاي . وما لمحته الّا للحظة. رجل قصير القامة ، جافّ العود ، عليه بوادر الغلظة والشّدة . فكّرت في أختي الكبيرة التي بيعت الموسم الفارط . أظنّ أن مولاها تاجر عربي كبير مقيم بمدينة أبيدجان . لم أرها بعد ذلك قطّ . أختي جميلة ، قويّة ، قادرة على احتمال المشقّة . نهدان جميلان وأسنان جميلة . ولم تكن في منزلنا ممّن يستهان بمشيئتهم ولكنّها فضّلت أن تباع لترحل مع رجل غريب على البقاء واحتمال الضغينة من بعل أمي . ورحلت عنّا دون أن تذرف دمعة. أمّا أنا قد بقيت في القرية أتسكّع . وكلّما مرّت بنا إحدى قوافل الحجيج ، هرعت إليها كالمجنونة، أتطلّع. ترى هل نسيني مولاي. لم أكن أعرف أسمه. لقد كتب لي أن لا أعرفه أبدا. ينادونه «سيدي» — مولاي — ولا يردفونها كلمة أخرى. كنت نائمة تحت الشجرة يوم أن قدم ليأخذني معه . رثّة الهندام ، لم أغتسل لعدّة

أسابيع. فتردّد لحظة . لا شكّ أنّه كان يقول في قرارة نفسه إنّني لست بالغنم الكبير. ثمّ دنا منّي وتلمّس نهدي : صلبان ثابتان . ابتسم . اعتقد أنه ما ارتاح لقراره الّا بعد التثبت . لقد كنت ومازلت ناهدة الصدر في غير ترهّل . فأخذ يرزن ثديّ بين يديه الصغيرتين ثمّ أشار اليّ بالصعود على الجمل . فصرت الى حالة أتردّد فيها بين الفرح والقلق . أقول في نفسي : الى أيّ حدّ من الدنيا يأخذني هذا الرجل الصغير يا ترى ؟ منيتي أن ينزلني عند باب الجنّة . أنا أهل للجنّة ، فما عرفت مذ حييت الّا شبح الحياة . لطالما تراكمت حولي السحب تمنع عنّي نور النهار وزرقة البحر . فمعرفتي بالميل وبعطورات الجنّة أحسن منها بكلّ شيء آخر . وليس لي من ذكريات سوى الحلم . طفلة لم تعرف الطفولة قطّ . لقد كنت طويلة القامة بريئة . سكرى من أثر الفراغ الذي يغمر حياتي . اشترى سيّدي بخورا من مكّة ومن المدينة . قطع صغيرة من العود ، شجيرة لا تنبت الّا في بلاد الهند . يضوع من دخان ما تحرق منها شذى لطيف غريب كأنه سعادة من حضره الموت وقد نضره؛ كأنه نفس يهبّ من باب الجنّة وقد دفعته فانفتح وعليه حرس من ملائكة هم صغار ملوك الأسطورة الذين يشتغلون أيضا بإيفاد أرواحنا من القبر الى أبواب السماء . جدّي هو الذي علّمني كلّ هذه الأشياء . جدّي قرن عجيب ، جدّي ، لقد كان حكيما ، وليّا صالحا ، ساحرا من سحرة الغروب . كان رجل الفسق ، وليس هو بالمشعوذ بل ممّن يطلب الشفاء على ايديهم . رجل ضحك من الدهر ، رجل علم أنقذ عصره وقريته . نعم ، لقد أنقذ القرية

كلّها من كارثة . كنت اذ ذاك صغيرة السّن، وذات يوم أصبحت صبايا القرية وبهنّ مسّ من جنون . يولولن ويخنقن العنزات القليلة التي كانت على ملك أهالي الجهة . يذبحن الدجاج ويشربن منه الدم . قيّدونهن الى الاشجار كما تقيّد الكلاب. أتاهن من المدينة نفر من فرنسيين في زيّ أبيض لحقنهنّ . فزاد الدواء هائجتهن توهّجا . اذ انقطعن عن الولولة وأخذهنّ البكاء والأنين. أذ ذاك دعاهنّ جدّي الى حضرته في فرق صغيرة. كان يستقبلهنّ تحت الشجرة، يمسح بيده على ظهورهنّ مرتّلا دعوات وصلوات . وهكذا انقذهنّ الواحدة تلو الأخرى . والحقيقة أنّي لست أدري ما الذي فعل بهنّ ولكنهنّ كنّ يثبنّ الى سابق حالهنّ بعد مضيّ بضعة أيام. عرف أن جدّي له في ملامسته للأشياء قوّة تذهل وتشفي. يداه نفيستان . وعلى كل ، فقد شفيت الصبايا حين أخذت الفرنسيين علّة ملحّة هجروا لها المنطقة دون عودة .

أشعر بالبرد . السماء كالقنديل يأتي على نوره . النجوم تهرع بعيدا . المؤذن يستيقظ من النوم : الجدران سميكة وأنا كالهواء خفّة . المدينة تفتح لليل المضنك شوارعها . عارية . ينزل الضياء لحافا لصدى الأجسام وهي تنهض متحرّكة .

وبمرور الزمن اكتسبت « دادة » بعض الفضل . السحر يد السماء والليل كتاب للعالمين . و « دادة » من السماء ومن الكتاب . كانت امرأة بكماء . أول نطقها صرخة طويلة حادّة : الوضع . أسمتها « الضاوية » .

اسم مروّع . « الضاوية » هي التي تضيء فتحمل معها وضح السرمديّة . أصبح لـ « دادة » نصيبها من نور النهار . ولن يقدر أحد على أن ينتزع منها سعادتها بأمومتها حتى ولو لم تكن زوجة على رؤوس الملا بل والدة من منزلة دنيا . كيف تخنق في نفسها الذاكرة ، كيف تبلّغ ابنتها قصّة روح حرمت الهواء ، رفضت ، ديست ؟ كيف تتحدّث عن ماض بشع ، عن حياة مغتصبة ، عن بصر خاضع .

واذ هي أصبحت زوجة الأب الشيخ الثانية ، فقد عقدت العزم على امتلاك قلبه . كانت محلّ حراسة مشدّدة وكان أقلّ عمل تقوم به مجلبة للتحرّز والشبهات . حياتها ضيّقة النطاق ، محدودة في الزمان ، مقيدة في المكان . وعلى عكس ذلك خيالها وعزمها . مواهب « دادة » الجنسية تثير الأب الشيخ الى حد الجنون . وذلك من الحجج المفحمة في تخطيطها . كم من مرّة ترك فيها الشيخ دكّانه ليطلب أمته الحسناء وينقضّ عليها بالمطبخ ! كان يلحس يديها الطافحتين أبازيرا وزيتا وعصير ليمون . كأنه البهيمة . يأخذها كما تؤخذ البهيمة فلا يوّجه لها الخطاب أبدا . وتنصاع اليه دون أن تتوقّع ، ولو على سبيل الوهم ، ايّة مداعبة ولا أيّة كلمة عطوف من قبل ذاك الرجل . ومن يا ترى يجرؤ على مطالبته بشيء من العطف والحنان ؟ ولا حتى نساؤه . ولا حتى اطفاله . يسفدها في عنف شديد وقد وضع في

فمها خرقة حتّى تموت الصرخة في حنجرتها اذا انفلتت . وليس لـ « دادة » ، ونصيب الزوجة الحرّة في ذلك كنصيبها ، ان تلتذّ ولا أن تبدي أيّة رغبة . لقد كان الرجل قويا على الجماع ، ينقصه لين من تخضّر . يقصد المرأة كالثور العاتي فيسفدها في صمت . ووجدت « دادة » طريقها الى تهذيب ذلك العنف الذي كان الأب الشيخ يسلّطه عليها مرّة في كلّ يوم على الأقل . كانت تحمله ، كلّما ترك لها سعة من الوقت على المداعبة . فتأخذ بيده وتمرّرها فوق جسدها وتجعل من وجهه مرتعا للسانها الملتهب فيكتشف لك الرجل بهذه الطريقة أنّه هنالك سبلا أخرى الى اللّذة غير السفد العاتي . وكان في بداية الأمر يشمئز من تعاطي كلّ هذه الممارسات الا أنّه انتهى الى مطالبة « دادة » بمداعبته باللسان وبالشفة الملتهبة على بطنه وعلى ذكره وبين اصابعه .

لمّا ولدت « ضاوية » أقام الأب الشيخ حفلا صغيرا وذبح بيديه خروفا ثمّ أمّ الصلاة في صحن الدار الكبير . وألزم جميع أفراد الأسرة — وخاصة منهم زوجته الحرّة وابنه الاكبر — على الاعتراف بـ « ضاوية » ابنة له . ومكثت « دادة » خلال كلّ ذلك في عقر غرفتها وقد أغلقت الأبواب عليها . فوضعها الرسمي هو وضع أمة سخّرت للعمل الشاق وللذّة صاحب البيت . لها الحقّ ، من بين كلّ ليالي الأسبوع ، في ليلة جماع شرعية . وفي الواقع فإنّ الأب الشيخ لم يكن يحترم القوانين التي سنّها بنفسه . فكان يوقظها كلّ ليلة ليمنّ عليها ببضع قطرات من المنيّ . يصبها صبًا . وكان غضب الزوجة الشرعية ينصب على « دادة » عند تغيّب صاحب البيت . وذات يوم عرض له سفر فارتحل بعد أن عهد لابنه الأكبر

في السهر على شؤون المنزل . فضربت « دادة » في تلك المناسبة ، ضربا مبرّحا أثناء نومها وحرمت الطعام يوما كلّ يومين . لم تكن تلفظ ولو كلمة . حتى اذا جاء الليل أخذها الأنين .

بشرتي أرض
جسمي درب
ولا مصير
حياتي عثرة لسان
يدي جذر على جبين الأفق
الحقد فم ملء رملا
بشرتي
سبيّة من الزمن
في قعر البئر العميقة
صور وصرخة لا تسمعها أذن
للبئر على جسدي أثر السحر
في عمقه ترمي لي صرخاتي
جسدي أزرق
إنّه ظلّ للنور
أنا قرن زاد على الزمن
قرن من صمت وطين
حقل سطّره الليل
جسدي حريق

وجبت الثورة عند انفلاق الدجور . ولم تكن « دادة » لتأبه بثورة عشوائية ولا لتولي للانتقام اهتماما . كان همّها الأوكد أن تتبوأ مكانها في صلب الأسرة وفي منزل الأب الشيخ . فكّرت في اللجوء إلى السحر . خاطرة . ستقول « ضاوية » فيما بعد : « لا ، ليس ذلك بالسحر وانما هو عمل سياسي واع مبيّت يتمثل في كسر قيود فعلية محسوسة ، وفي بلوغ حدّ الكرامة » .

سمعت « دادة » ذات يوم الحوار الآتي يدور بين كبير أبناء الأب الشيخ وأمه :

ــ لا أريد أن تكون لي أخت سوداء البشرة .

ــ هي ليست سوداء ، بل شديدة السمرة .

ــ قد يتراجع اصهاري في وعدهم لي بالزواج من ابنتهم .

ــ لا ، انّهم من المتحضرين ، هم على علم بأن « دادة » ليست الا خادما وأن « ضاوية » بنت لها ولأحد الحشم بمنزلنا .

ــ ولكنّ « ضاوية » تحمل اسمنا وتؤمّ المدرسة .

ــ لا ، لن تمكث بالمدرسة . عمّا قريب سأحتاج اليها للقيام بالأعمال الطفيفة بالمنزل . إنها ظريفة تصلح للخدمة . إني لأراها وقد ارتدت صدارا أبيض تقدّم خدماتها لضيوفنا . ثمّ إن عائشة قد كبرت . لم تعد تلصح لشيء . انه دائما نفس المسار ؛ نكوّنهن ، ننقذهنّ من الفاقة والبؤس ، ثمّ ينقلبن علينا . اسمع لقد خطرت لي فكرة . أنت تعرف أنه أصبح من العسير على المرء أن يجد خادمات صغيرات . أقترح عليك أن تأخذ وزوجتك « ضاوية » خادما لكما في مسكنكما .

ـــ لكن « دادة » لن ترضى بذلك .
ـــ ليس لدادة قول في الأمر .

لم يكن لها أن تتكلّم . كانت تكتفي بالفعل . في الحمّام حصلت لها معرفة زنجيّة عجوز تشتغل بغسل الموتى فوفّرت لها قطعة من لسان الأفعى الخضراء وذبابة من الهند ورأس عنكب أسود . وباستعمال كلّ هذه العناصر بعد طبخها في عسل الجنوب والزنجبيل الطازج كان بوسع « دادة » أن تقلب الوضع داخل الأسرة رأسا على عقب . كان لا بدّ أن يأكل الأب الشيخ لقمة صغيرة من هذا الخليط في ليلة اكتمل قمرها . وطال بها الزمن الّا أنّها نجحت في حمله على تناول غذاء الموتى في الوقت الملائم . مرض الأب الشيخ اثر ذلك مرضا عضالا . اشتدّ به الغضب . حصل من الخليط عكس المفعول المؤمّل . كانت « دادة » تظنّ أنها قد أخطأت في تقدير النسب من عناصر خليطها . فلعنت الزنجية العجوز وتحصّنت خلف جدار وحدتها وأعمالها الشاقة . أعرض الأب الشيخ عن مضاجعتها . انتزعوا منها « ضاوية » . وفي سجنها بمخزن المؤن أخذت تنشد أدعية جنائزيّة عتيقة :

حمراء الأرض وقد سقيت عسلا
سيل من العسل سيجرفك وأنت تختنق ، تغرق
لأن العسل سينقلب وحلا
ستنحني السماء تحت عبء جرادها العملاق

سيكون ذلك كفنك
سيغطّيك المحيط بأمواجه
وقد حرثت أعماقه الغابة والرياح
الضغائن المتقارعة
حمراء الأرض وقد جابها الموت المذعور

تملّك الخوف أفراد الأسرة ، ولمّا كان الأب الشيخ من المتطيّرين فقد افرج عن « دادة » واستحضر القرّاء لتلاوة القرآن وصرف الأذى عن الدار . وبعد مضيّ بضعة أشهر عاد الوضع الى حالته الطبيعية . « دادة » تنصرف إلى شؤون المنزل والزوجة الحرّة تعدّ العدّة لزواج ابنها في حين رجعت « ضاوية » الى المدرسة . استعاد الأب الشيخ في غبطة ممزوجة بالحذر حرارة الجسد الأسود . ولكن « دادة » لم ترجع عن مخطّطها القديم . وتمكّنت ذات يوم من التسلّل خارج المنزل فتوجّهت الى حارة اليهود قاصدة ساحرا يهوديّا ذائع الصيت . كان الناس يقصدونه للنصيحة من كلّ فجّ عميق . لقد كان رهيبا مخشيّا . فقدّمت له سوارا ذهبيا (سرقته من بين متاع سيّدتها) مقابل كتب نافذ الفعل . كان ذلك في شكل طلسم مخطوط بالعربية وبالعبرية ، تغطّي بعض أطرافه الأرقام ، مغموس في دم ساخن لديك وحشيّ ومعطّر أربعة عشر نوعا من البخور المستجلبة من افريقيا ومن الجزيرة العربية . كان على « دادة » أن تخفي الطلسم داخل وسادة سيّدها ، ووعدها اليهوديّ بأنه لن يطلّ فجر الليلة الثانية عشرة على ذلك الّا وينهض مولاها من نومه وقد تيّمه الحبّ والشوق اليها ، واذا ما فعلت الأرواح فعلها فسيذهب به الأمر حدّ تطليق زوجته الحرّة . وما كانت « دادة » لتطالب بكلّ ذلك .

ستقول « ضاوية » فيما بعد : « لا يا أماه ! إن السّحر لا ينفع في شيء . تردّين على عمل بربريّ بمثله . ثمّ أنك تتقنّعين . لا ، أمام عنف السيّد الذي سرق منك حياتك يجب استظهار عنف أكبر . لا تجيبيه جواب العبوديّة . على كلّ حال ، أمّاه ، أنا أفهم ، لقد كان الألم فيك شديدا ...

فوجئت « دادة » بما جدّ من أحداث . لم يعد للأب الشيخ من وله — لنقل من جنون — إلّا بها وبابنتها . لم يطلّق زوجته الأولى ولكنّه باعد بينه وبينها ولم يلمسها منذ ذلك الحين . أمّا « دادة » ، فقد أخذ يهديها من الذهب والحرير الخالص . وطفق يتناول معها طعامه على مرأى من الجميع . لم يعد الأب الشيخ يدرك ما يفعله . وذات يوم أطلق لحيته واتّجه نحو جدار وأخذ يمعن النظر شاخصا في مسمار صدىء . وانقطع عن الكلام ورفض الطعام وقضّى كلّ وقته مهمهما بكلام يبعث في أفراد الأسرة من الخجل والحيرة بما يحملهم على الولولة :

أيد ، نعم أيد ، لا بل أصابع والشمس ... ذكر عملاق يشهدكم ، إنّه عين عليكم ، أيد ... مال ... بيضتا عنتر ... فرج ... ذو شفاه ... نعم ... وجه مثقوب هو ليس بوجهي بل وجهكم ، الأمر حاله كحال أسنان الفرج ... أسنان الرحم ... إنّ التفكير في النبيّ ليؤلّب مواهبي الجنسيّة . انه يدفع بي نحو النهر ، أنا سأقصد مكّة أو جبل عرفات ...

السماء ، القمر ، المخرج ... البيضتان ... بيضتاي ، حجاب على أعينكم مسدل ... المخرج ، إصبعي في المخرج ، أمتصّه ، السماء الحصان ، الناقة ، سيل من الصبية ... النكاح ... البقرة ... يدي على نهديها ... العجلة ... سبع مائة شمس ... النهار ... ثلاث مائة مليار ذكر وانا أرقص معتمدا شعرات المخرج ... النافذة ... المال ... الفراشات فوق ذكري ... قلت لها ... قالت لي ... اثنتا عشرة ليلة مكتملة البدر ثلاث عشرة قمّة من الارض ومن الرمل ... نهر بين أصابعي ... المسمار في مكانه ... أنا مسمار ... أنا معلق بهذا المسمار ... أنا معلّق على الصدإ ... لقد أحسن والدي تربيتي ، ذو النسب الرفيع لا تلحس أليتاه ، اقتربوا اذن ، انتصبوا على الركب ولتلحسوا ... لقد علمني والدي الصلاة والكذب ، الحقّ والعنوة ، هلموا وأطيعوا ... أنا الجدار ، الجدار الابيض . لعن الله دين فرج أمّك ... نهود وزنها بالأطنان ... ثلاثة عشر نهدا لصدر واحد ... ثلاثة ملايين حب ... الجدار ... انا الحجر ... أنا الظلّ ... الثقب ... أنا بعر بجبل عرفات ... هلمّوا للصلاة ، قبري مفتوح ... تعالوا تموتوا في قبري ... سنجعل الليل للنكاح ، ستنعم الملائكة علينا بعونها نهارا ... سننكح البحر والرمال ...

الليل ... أنا الليل والوحي ... إنّي أرى النبيّ لا بل أنا النبيّ نبيّ الزمن البشع ، نبيّ الضغينة . نبيّ الشؤم ... الجدار ... لعن الله أرواح أرواح أوهامكم المعلّقة بذكري وأحرقها إحراقا ...

أنا بالجدار ... مرسوم على الجدار ... لقد التهمت قلب ناقة سخن وذهب منّي الايمان ولعنت الدين ... الليل ... وخرج مني البول نجوما ... أنا السهل ... من البراز ... بل أنا البراز ... لقد طلبت من النبيّ أن ينام ... لقد أتيت لتصريف الشؤون اليومية ... إن النبيّ لنائم ... ولن أنام إلّا بين ساقيك يا معبودتي ... في جسدك سأجد الحكمة ... قولي لهم إنّي سأعود عندما يهلّ البدر من القرن الآتي ... لي فرس ... أشرب بولها ... إنها مطيّة النبيّ ... المهدي أنا ... إسمي مهديّ ، أنا الذي على عاتقه رسالة الختم ... أنا قادم ... أنا قادم مع المطر المقبل ... أنا سأقدم بعد كل الكوارث ... أنذركم بالشؤم ، ستزلزل الأرض والسماء فلق ... أنا عصفور ، تبنة خفيفة ، ورقة نعناع ، صوت من المقابر ، كلم قدسيّ ، يوم آخر من دنيا الخلود ... أبد ... لتصلّوا ، لتصلّوا بدون وضوء ... أعدّوا العدّة ... الحساب ... لقد أنجبت العنز طفلا ، هو لي ، أكلته أثناء النوم ... طفلا جميلا ولطيفا ... أنا جزيرة ، شجرة ، أرض ولا ماء ولا حبّ ... خمر ... أنا أسكر ... لأحرق خيمتي ... اعطوني خمرا حتى أتطهر من ذنوبي وليأخذني البول وأنا نائم بالقبر ... المسمار ... البحر ... الكفن ... عين مرسومة ... ويوم آخر ... لتعد تلك المرأة السوداء الافريقيّة ... أناها ... لقد ابتاعتني بالسوق ... أنا عبدها ... لتقدم حتى أطيعها ... درر وملايين من المال بين فخذيها ... والعنز ... لقد نسيتني ... لم يعد لي ظلّ ... نهر بين النهدين ... ويوم آخر بين أسناني ... عصفور ميت ...

وستنحني السماء تحيّة لجثماني ، والريح ، والأرض ، والجزيرة ، أنا جزيرة في بحر أكاذيبكم ، صرخة وريشة من حمام ، أنا أحلّق ، أنا أصعد الى السماء ، انّها الروح تهجرني ، لا بدّ أنّي لفظت كلاما نتنا كالخمر التي أشربوني فوق أكمة الحلم ، الروح تهجرني ، فما المصير ؟ ترى هل هي الروح تترك الجسد أم هي السماء منّي تقترب ؟ لتصلّوا بعد الخمرة ، لا ، ولو مرّة ... الجدار يتقدّم ، النافذة تنفتح ، كلماتي ثقوب على الجدار ... الأرض السهل ... الوطن ... سقط الكوكب جاثيا على جبهتي ، أنا أجتذب شعر لحيتي لأطرد الأطفال المتساكنين فيها ... أنا أعرفهم واحدا واحدا ... آآكل ... لا ... الأنبياء لا يأكلون ... سأكون أوّل نبيّ بشّر بالجنس ... فاسد ... نعم ... ومن ليس بفاسد في زمننا هذا ؟ خبّروني بربّكم إلى أين تدفع بي الريح ... أنا أحلّق ... أنا أطفو ... أغنّي ... أبكي ... أولول ... أولول ... أيا مهدي ، هجرك كلّ الناس، أولادك ونساؤك ... أنا المهديّ ، أنا الرجل الموعود ، المختار ، المنتظر ... معي إليكم أخبار شؤم ... أخبّركم بالسماء وزوابعها ... أنا الشجرة التي أتى عليها الأسى ... أنا النهر الذي نضب ماؤه من أثر شحّكم ... أعرض الكلّ عن البول في نهري ... ولا أحدا يروم تقبيل بيضتيّ، ... أنا رجل تمطّطت حياته وهو غريب فيها ومني الى الموت ... إليّ بسرعة كي أبلّغكم رسالتي ... خذوا أطفالكم إليّ هديّة أعبر بها ليالي وحدتي ... سأعطيكم زيتا ودقيقا من ضيعتي ومن جسدي وليس من هبة الأمريكان ... أنا رجل موسر ، ذاك ما أراده الله ،

أحبّوني لأجل دقيقي ولأجل بشرتي الناعمة ، أحبّوني ، أحبّكم ... أيا مهديّ ! لن يعرفك أحد عند عودتك ... أرم بنفسك في دنيا الموت ثانية ... اذهب في سبيل حالك ، اترك هذا الغمر الى كسله ، هذا الخلق إلى حزنه ، هؤلاء الصبية الى قصديرهم ، سيقتاتون من فضلاتي ، لا توقظهم، بهم شراسة ، أنت تعرف أنّهم لا يملكون شيئا سوى البطن والخبث ، ليس لديهم ما يخشون ضياعه ، انّهم قادرون على غزونا وازدرادنا بعد تجزئتنا الى قطع صغيرة ، ماذا إذن أيّها المهديّ ، كن عاقلا وأوقف هذا السرب الجائع من الأطفال ؛ دع هذا الشعب الى سرابه ، دع القوم الى عبوديّتهم ولكن اصطحب نساءهم ... هنّ لسن بذميمات ...

استيقظ «محا» في قلب الليل لهذا الوابل من الكلام . خيّل إليه أن أحدا قد استلبه بعض فقرات خطابه . خطاب حوّل عن غايته ، خطاب مزيف مخدوع . سيقول ابن الأب الشيخ الأكبر فيما بعد . « لا يا أبتاه ، لا ! لا تظننّ أنك بهذه النتف من خطاب مجنون ولا باللغو من الكلام ستستعيد مكانتك ومنصبك . ينبغي على رجل من طينتك أن لا يقع في شراك النسوة . ولماذا اجتلبت هذه الوصيفة حتّى منزلنا ؟ لم لم تتركها عند آخر باب من أبواب الصحراء ؟ لقد تخطّينا القرون الوسطى يا أبتي . نحن بلد تقدم بفضل الغرب ! ولّى عهد الامعان في اللذّة ! وللأسف لم تبق عائلتنا على صفائها مثلما كانت الحال من ذي قبل . أصبح للخدم شأن وقول في حياتنا الحميمة . لقد صيّرتك هذه الساحرة الى الجنون،أما أنا فلا

تزلّ لي قدم ، أنا هنا عين تسهر . آن الأوان لكي تستفيق . ارجع الى منزلتك وخذ زمام الأمور بيدك من جديد .

استلهم «محا» الشجرة وقد أخذ منه الغضب مأخذا ثمّ اندفع يجري نحو دار الأب الشيخ الكبيرة :

لست إلّا زورا وبهتانا . أنت الاغتصاب بعينه . تتظاهر بالجنون لمخادعة كلّ من حولك وتخفي وجهك وراء لحيتك مثلما تواري جلدك تحت الدرن . باللخسة ! انك أهل للسوط يدمي جلدك ... أنا أعرف من لو رآك لفصل عنك خصيتيك ، ما بغيتك من كلّ هذا ؟ باءت أعمالك بالفشل ؟ عجزت عن القطيع فلم تسـه ؟ أم هي زوجتك تؤلّبك على الآخرين ؟ هل صحيح أنّها تحرّك وراءها كالدابّة ؟ يا للعار سيّد صيّروه الى حالة الدّابة المخدّرة !... هيّا ! أوقف سيل هذا الكلام وعد الى قبرك . لا شفقة ولا رحمة . لك عبيدك وتبتغي مداعبة اليتي الغلمان . انّك تستغلّ البراءة لانحرافاتك . لو أعلنت فعلك على الأقلّ وما تستّرت عليه . تعلوكم الضغون وتتوهّج منكم الضغينة ، على بكرة أبيكم . تخرج من نظامكم أمة فتتظاهر أنت بالجنون والخبول ! تسقيك الأمة دما طازجا فيأخذك من ذلك الاسهال ! قم إلى المقبرة أو الى المتجر . إنّك تخلط المقدّسات بالبلادة . تستهين بك الطيور والسماء تنكرك : انّك ملفوظ . ولن تذهب بك الريح وسيثأر منك المهدي، لا تلوّث الفرس والعنز . لا تتحدّث عن الشعب وعن جماهير الناس . سيقرون بطنك يوما وسنقهقه لذلك والموج

يحملنا . أرجع الى دارك . ستزوّج ابنك عمّا قريب . سيسكن معك في نفس المنزل كي يستمرّ سلطانك . ستأمر وتسهر على سير شؤون الأسرة . الأسرة ! يالها من نهر مقيت ! تريد احتواء كلّ شيء . اذهب ! اذهب الى حضرة زوجتك الحرّة ، فهي التي سحرتك . ياله من مصير أنكد ! اذهب لتقبّل رجليها . وقبّل يدي زوجتك السوداء . لعلّ الغفران يكون على يديها . يدان لم يقبّلهما أحد . احلق هذه اللحية واغتسل بالحمّام وكفّ عن الاستمناء باليد وأنت تداعب أطفالك . ياللبشاعة ! لكلامك رائحة المال النتنة ورائحة الزبدة المتعفّنة . أنت ثريّ ، طويل الباع ! ولكنّك تبتغي مرتبة السلطان المطلق . يالك من رجل مسكين ! ان النجوم لن تسهر بعد الآن على ثروة جمّعتها من عرق البؤساء . يفلح العسفاء لك أراضيك وتنظر اليهم نظرتك الى المتسوّل فلا يلقون منك الّا الأجر القليل ، إنّك بذلك تشدّهم الى فقرهم ناسيا أنّهم بشر . ذلك قضاء القدر في نظرك ، لك من عند الله الغنى والسؤدد ، ولهم الفاقة والحاجة والعبوديّة لخدمتك ! السماء لكم دوما عذر وتعلّة تبرّرون بها تعسّفا توارثتموه أبا عن جدّ ... ياله من مصير ! تشتري النسوة ويزيغ بين يديك معدن الرجال . هيّا ، كفّ عن كلّ هذا واقصد الشجرة تقل لك ما العمل حتى ترجع الى حالة الانسان ، ولن يدوم ذلك زمنا طويلا فالأطفال يعدّون العدّة لليالي النار والغضب الشديد . وسترحف كالدابة تتضرّع مستجدية نظرة أخيرة . لا تمكث أمام الجدار تحدّق فيه فهو متقدّم نحوك كتلك الغابة من الصبيان وإنّه لا محالة مهشّم لك جمجمتك في فلق من الضحك .

أدخلت تلك الحال من الجنون التي كان عليها الأب الشيخ البلبلة في نظام الأشياء بالدار الكبيرة . « دادة » تبكي خلف الباب وقد أخذ منها القلق مأخذا . تقطّع فخذيها . كلّ الناس يقولون لها إنّ الأب الشيخ لم يمت بعد . ما الفائدة من إدماء الجلد واستجلاب الشوْم. أرسلت الزوجة الحرّة في طلب أهلها واستدعت إمام المسجد الجامع . فصلّى يغطّيه بياض لبسه وتفوح منه رائحة العطر ثمّ خاطب الأب الشيخ قائلا :
« ارجع الى ربّك فلقد ضللت الطريق . إنّ الله بالمؤمنين لرحيم . أدع معي . وسنطلب لك التوبة والغفران في صلاتنا يوم الجمعة . ارسل بأطباق الكسكسي عند باب المسجد . كن كريما سخيّا مع الفقراء وهيّء نفسك لحجّ مكّة مرّة أخرى . كان الله في عونك وهدانا جميعا الى نوره ... »
وأصابته وهو على تلك الحال حجرة مطليّة بالدناسة على وجهه . فانصرف لغير رجعة .
أخذ الابن الأكبر زمام الأمور بيده وأشرف على تسيير مصالح الأسرة وذات يوم جمع الفلاحين ممّن شغّلهم والده وقرّر زيادة في الأجور لصالحهم . إجراء ذكيّ ، ذلك ما كان يقول لنفسه . وحدّثهم عن آلات عصرية ذات مردود خياليّ ومستقبل باهر . سكت الفلّاحون . استمعوا الى « العرف » الشاب في صمت .
ومرّت هذه الأحداث بعائشة وهي على خفّتها وسخريتها . تغسل زجاج النوافذ دون أن يغيب عنها حدث ممّا يجدّ بالمنزل . كانت تتابع الوضع في كثير من الكتمان. وذات صباح ، بينما كانت عائدة من الغاب ، التقت بالأب الشيخ على باب المنزل فتملّكها الهلع ، كان الأب الشيخ ، وقد حلق لحيته واغتسل ، في طريقه الى المسجد لأداء صلاة الفجر . وكان قد تأبّط سجّادا أحمر وعلى فمه ابتسامة خفيفة شدّت أحد منبتي شفتيه إلى

الأسفل . قبّلت عائشة يده والبصر منها دان فداعب الأب الشيخ خدّها وأشار إليها بالدخول .

ورجع كلّ أمر إلى نصابه . عادت « دادة » الى حالة العبوديّة . « ضاوية » تروح وتغدو الى المدرسة وإن لم ينأ عنها الخطر الذي قد يصيّرها الى حالة الخادم في منزل الابن الأكبر . الزوجة الحرّة شرعت بعد في الاعداد للزواج مبتدئة بكبريات المهامّ . ولم يجرؤ أحد منذ ذلك على الاشارة الى حالة الضلال التي كان عليها سيّد الأسرة . انتظمت جميع الأمور من جديد . وازدهرت مصالح الأسرة منذ شرع الإبن في السهر عليها .

لقد قلت إن النظام قد اكتمل ؟ كلّا ! لم يكتمل بعد . ارهف السمع قليلا وانصت ... أتسمع هذه الهمهمات البعيدة .

المهمات التي تصل مسمعي لصبية صغار ، لصبية أنجبتهم كلمتي ، أفرزتهم بشرتي . إنهم أطفال القصدير والصدفة ، إنهم يتأهّبون لركوب الغيمة الكبرى . المدينة خائفة . إنها لا تحبّ الزوابع المرعدة .

يوجد من دون جميع الصبيان واحد بقي مشدودا إلى شعاع من أشعّة الشمس . لم يكن يحلّق في الفضاء بل يحلم . أسرّ إليّ بصنيع له يمكنّه من التعلّق بالشمس لمدّة طويلة وأخبرني كيف ينزل إلى الأرض على متن سحابة ذات ألوان . كان يقول لي : « سأمكّن نفسي من قبّعة سوداء وحذاء أبيض لكي أستهوي أجمل بنات المدينة . » وكان يرتدي سروالا يصّاعد إلى حدّ ذقنه ، يشدّه إلى خاصرته بحبل . لم يكن هذا الصبيّ ليبعث على المزاح . لقد كان ذا جدّ وحزم . على وجهه من التأثّر مسحة لفراغ مهول يلزمه . وإذا حزن صعد إلى شجرة وركب أحلامه . وكان يسائل النفس عن زمن يدخل فيه عالم الطفولة . لقد ولد كهلا كما يولد البعض من الناس معاقا . كثيرا ما خامرته فكرة الموت وألحّت إلّا أنه كان يضحك من ذلك . يقول إنّها لن تناله وإنّه سيعرف كيف يفلت من قبضتها . لذلك كان دوما على أهبة للسفر مع آخر شعاع للشمس . ولكنّه لم يفهم قطّ لم ولد في يوم نديّ ولم سالت عين ماء قرب ذلك الصندوق المصنوع من

الورق المقوىّ الذي أودع فيه . كان يقول :

لو كنت من أبناء الموسرين لما احببت ولا رأيت ولا علمت شيئا . لكنت شحما متأذّبا . سؤوما مدلّلا ولقضّيت كامل حياتي وأنا أغبط في الخفاء من الصبية من يتعلّق بالسيارات الأمريكية وليس لهم من حسيب . كلّا ، يأخذني بين الفينة والفينة حنين إلى الحياة ، تلك التي لم يحصل لي أن أعرفها . أشتاق إلى الفطائر المغموسة في العسل وفي الزبدة الخالصة . أنا لا أحبّ الشكلاطة . لم أخسر شيئا من هذه الناحية . تأخذني أحيانا رغبة الى أكلة جيّدة تسدّ الرمق . الاحتماء ببرنس المتخمين من الناس ليس عندي بالمثل الأعلى . المثل الأعلى بالنسبة لي هو أن تصير الى خفّة العصافير ، هل فهمت ؟ فليس من قبيل الصدفة أنّك تلقاني دوما على أغصان الشّجر . سينتهي بي الأمر إلى أن أصبح مجنّحا . وإن لم يكن ذلك فسأبتغي شغلا في السرك . وإن كرهت شيئا فهو متمثّل في حالة من هو ليس بالفقير دون أن يكون غنيّا . وعلى الأقل فمن خفّ جيبه من كلّ شيء أكثر آنبساطا ممّن ثقل متاعا ، أعني بهذا أنّه يضحك ويضرط في أناقة . ولمّا كان الناس لا يقرضون المعوز أبدا فأنا مرتاح البال ، إذ لن يتخلّد بذمّتي دين ما حييت . لكن إذا السماء أمطرت واكفهرّت وكشّرت عن أنيابها وتداول البرد والريح على الدنيا فإنّ الألم يأخذ منّي مأخذا . أجمّع أطرافي حتّى أصير كرة من اللحم . صغيرة صغيرة .

وتتعثّر أحلامي بين الوحل سجينة . فهي إذا ابتلّت عجزت عن الرحيل ولمّا كانت الشمس عمادي الأساسي فحالي تتدهور متى سدّوا طريقها . ما أشدّها من كبوة ! لا بأس ؛ إن فطائر الصباح للذيذة . لقد شهدت يوما إمرأة من سنّ الجدّة وهي بصدد تجهيزها على عتبة بابها . أعطتني منها اثنتي عشرة قطعة ! انتفخت من أكلها كما يفعل الضفدع . إن العسل عندي نذير خير . فإذا أكلت منه شيئا صفت رؤيتي ودنوت من السماء . يجب أن لا يكون مخلوطا بالسكّر بل صافيا خالصا . بعد مضيّ خمس سنوات ستظلّ الشجرة والسماء في مكانهما العاديّ . بعد مضيّ خمس سنوات ستكون لي قبّعة وقميص من حرير . بعد مضيّ خمس سنوات سأتزوّج بغزالة وسنرحل لنعيش معا قرب العين . أنا أعلم أنّي ابن تلك العين . أعلم أنّها امّي ، أمّي أنا . قد يكون والدي حصانا . يجري في المدينة . يحمل أثقالا لتجّار المدينة . حسنت الحال هكذا ؛ أنا حرّ. ووالديّ من الماء والتراب ولا غيرهما . ينعمان بالاطمئنان . عندما أذهب إلى المدينة يأخذني الغثيان . في استطاعتي أن أربح شيئا من المال كماسح أحذية ولكنّ الشغل يولّد لي صداعا برأسي . ليس من التبصّر في شيء أن أمرض وحالي على ما هي عليه . عجز الناس عن التوقّف لتبديد الوقت في حاضرنا . ولا من متوقّف في مطلع الربيع يشاهد الشجرة كيف تخرج من حال إلى حال . الشجرة كالفتاة . لربيعهما بالغ الأثر على النفس . ولكن معدن الأشياء قد خسّ . ولا هي تبعث على ركوب مشقّة اختلاسها . أنا أحبّ الذهاب إلى

المصلّى . الجوّ فيه ناعم محبّب على الدوام . أحبّ النوم في المساجد . إنّها تلهمني وتمنّ عليّ بالغريب من الحلم : أسافر عبر السماء ، أرى حدائق معلّقة في الفضاء ، أخترق قصورا مودوعة على جبين الأفق وعوالم لا تنالها هذه الدنيا الكئيبة ... من طبعي حبّ الوحدة . لذلك فأنا أعمّر سباتي بالخيالات والألوان. ولا يجد رفاقي لتردّدي على مثل هذه الأماكن من معنى . والحقيقة أنّي أقصدها للتأمل . فأحدّق في السقف وأتثبّت في الرسوم الخطّية وكأنّي أقرأ سحابة . حدث لي أن رأيت فيها أشياء من الخوارق ؛ وجوه يقرأ الغيب على صفحتها ، أياد ترسم الزمن ، حركات تعهد بنية السماء ، سبل تؤدّي إلى أجنّتي المختارة وغيرها من الأشياء التي يستعصي عليّ ذكرها . ولمّا كنت من المتردّدين على مثل هذه الأماكن فقد عرض لي أيضا أن تبادلت الحديث مع الامام المشرف على إدارة المسجد . وليس هو بالشيخ ذي اللحية البيضاء بل هو إمام شاب ينتمي إلى الجيل الفتيّ الذي تلقّى المعرفة في مختلف بلاد الاسلام . إنه موظّف بالوزارة . والاسلام حسب رأيه قد تدبّر أمر كل شيء . وهو يحتوي كلّ شيء ، حتى الاشتراكية . وأوضح لي أنّي عندما أكبر — كما لو كنت صغيرا يوما ما — سأفهم الاشتراكية والسياسة . ولكنّ السياسة عندي أمر مبهم ، أنا أحيا ... لي من العمر آثنتا أو ثلاث عشرة سنة — لقد ولدت في تاريخ قدّر بالتخمين — لست أدري بالضبط ، على أنّه لا أحد يعرف ذلك على وجه التدقيق ، ولكنّي أعلم أنّه هناك من يؤمّ المساجد ثمّ ينزوي في المنازل الزجاجية . وقال لي

ذاك النقيب الشاب ، متكلّما عن الدين ، إنّ البلاد في خطر لأن أشخاصا ملحدين يموّلهم الأجانب سيأخذون بزمام الحكم في البلاد وسيلقون في السجن بكلّ من أمّ مسجدا ؛ وقال كذلك إنّي أنا أيضا أراهن بحياتي وأنّه عليّ أن أكون حذرا لان أولائك الأشرار الذين لا يؤمنون بالمساجد قادرون على التعرّض لشخصي بالكيد والأذى . أنا لم أصدّق من كلامه شيئا . تركته يرسل كلامه وقد طاب له أن يستظهر أمامي سعة درايته . على كلّ حال فقد تظاهرت بتصديقه . أنا ، وإن تردّدت على المسجد ، فما ذلك لايماني بالله وأنبيائه وإنّما لراحة أشعر بها وأنا فيه ولتأمّل السقف داخله . لم أجرؤ على إعلان ذلك أمامه . على المرء أن يكون ذا مراس وسياسة أحيانا . ثمّ حدّثني طويلا عن تجمّعهم . هم جماعة ممّن شاطره الرأي بادرت بتكوين فرقة للدفاع عن كلمة الله . فرقة سلاحها القرآن والخناجر . كثيرا ما يجتمعون فيحتدّ النقاش بينهم . حضرت يوما إحدى اجتماعاتهم وعرضوا عليّ أن أعمل في صلب فرقتهم ، عملا من نوع خاصّ ، هل فهمت ما رميت إليه ؟ ذكروا لي أنّه عليهم المحافظة على براءة الطفولة والوقوف أمام إلحاد السوقة والرعاع حتى لا يقوّض روح الشعب . وشهدت الاجتماع إمرأة ملفوفة في حجابها حتى أنّك لا ترى منها إلّا العينين . منظر مرعب . بدت منها عين واحدة تمعن النظر في ما تحدّق فيه . يا للفظاعة ! وفهمت أنّهم ينتدبون أعوانهم من بين الفتيان . يرصدونهم على باب المعهد عند نهاية الدرس ويتعرفّون هناك على شباب لا حنكة له ولا دراية . وطلبوا منّي

أن أساعدهم بأن أتردّد على المقاهي والحانات خاصّة للتجسّس ومعاينة من تعاطى الخمر فيها ... هو عمل نمّام واش ! في سنّي المبكّرة ! ليس بهم إحساس بالحياء . قلت لهم إنّي سأتدبّر الأمر . الآن سأختار مسجدا آخر . للاسف . لقد أنست هذا المسجد ! أنا لا أحبّ الصلاة ، على المرء أن يغتسل طول الوقت . أفضّل على ذلك النظر إلى الزرابي . بالية ولكنّها جميلة . إن الأحلام التي أستلهمها من الزرابي أقلّ غرابة من أحلام السقف ، ولكنّها جديرة بالاهتمام : أغوص في أعماق البحر المحيط وأعايش الكائنات البحرية . لقد قصّوا عليّ حكاية الف ليلة وليلة . لاقيت مرّة شهرزاد الجميلة . عرضت عليّ أن أرحل معها كي أغسل لها رجليها . وعدتني من المال بمالا يقدّره إلّا الخيال . رفضت ذلك . أنا ذو أنفة ، وبعد ذلك فهي من الحسن على درجة لا أقدر عليها . خشيت أن يأخذني وله بها فأصاب من ذلك بعلّة الحبّ والبغضاء . لا ، فالزرابي تحملني إلى عالم عجيب تكثر فيه المخاطرة بالنفس . لذلك أفضّل السقف . سأعتزل كذلك بالمقابر . للتأمّل . إنّ المقابر لا تبعث على الحزن ولا على البهجة ولكنّها لا تخيفني . لا تخطيط ولا تقابل في تصميم القبور . يأتي الأموات ويحتلّون أماكنهم ؛ المهمّ هو أن تكون مكّة قبلتهم . أنا أحبّ قبور الفقراء من الناس : لا بلاطة ولا زليج ، كلّ ما هناك حجرة مغروسة فوق رأس الميت وكثيب صغير من التراب الأغبر اللون . أنا أرتاح لهذا التراب الأغبر ولهذه الطاقات من العشب الحرّ فأسرح بينها مفكّرا في الحياة . لا حياتي أنا فليس فيها ما

يتعلّق به الفكر . حياة الآخرين ، أولائك الذين يجرون ورء المال ، أولائك الذين يخالون السعادة في الجرّة والجرّة سرّ من أسرار الحديقة والحديقة حلم جرى في حديث روته الجدّة .
تراودني كذلك فكرة الموت . موتي أنا لا موت الآخرين .
الآخرون ، يقيني أن الموت قد سكنتهم بعد ولكنّهم لا يعلمون ذلك حتّى إذا أتى يوم خانتهم فيه قوى الجسد لم يلقوا من الوقت سعة لعلم أيّ شيء . إذا هي موتي أنا . صنبور يتوقّف عن الضخّ . عين نضبت ماؤها . سباق عبر الغاب والريح الهبّابة تعصف فلا تسمع لها صوتا ولا تحسّ لها أثرا فتظلّ تضحك ، تضحك للسماء ، تضحك للأرض التي تهيّأت لاقتبالك ذات مساء ولا تفكير بعد ذلك . إنّ ما يقلقني بعض الشيء في حالة الموت هو أن تعتريني الشيخوخة في ظلمات الأرض . لقد تكلّمت بما فيه الكفاية هذا اليوم . سأخرج حصاني العجيب في مرج الصمت . بعيدا عن المساجد وعن المقابر . على قاب قوسين من الحياة . على مقربة من الموت .

هكذا اختفى الصبيّ ككلمة طوتها الريح . حبّة ضبابيّة في وضح الصباح . وفي الأفق البعيد انتصبت المدينة . تراكم حطام عند قدميه . أشلاء منازل . أطلال رمّمت . حجارة كدّست . هي الأرض المداسة من أثر الزوابع واللامبالاة . أرض زرعت قمامة واطفالا انحرفوا عن هذه الحياة — بل عن شبح هذه الحياة — اطفالا منسيين لن يعرفوا من السعادة والغبطة إلّا الحسرة . إنّ المدينة وراء هذا الحقل من الخراب الذي اعتدناه .

إنّ المدينة تمتدّ وراء ذاك الحائط المرتفع الذي أقاموه حياء لموارة كلّ هذا الآجر ، كلّ هذه الأجساد وكلّ هذه الوجوه المكشّرة . هذه هي المدينة . المدينة الكبرى . تلك التي تحيا بها بلادنا . بحدائقها المشذّبة النبات وأزهارها الرّقيقة العود ونظامها الخالص وبناءاتها العملاقة وجنونها وغطرستها . بغضونها وسراديبها صبية يحاولون الضحك متشبّثين بشبح الحياة . وما بينهم وبين هذه الحجارة المهذّبة المنقوشة التي انتصبت حتّى كأنّها القانون صلة . إنّهم من الغبار ومن الزنك .

نعت وزارة الشعائر الدينية إلى الأسرة خبر وفاة الأب الشيخ . مات مختنقا وسط حشد من الحجيج متراصّ مندفع إلى ملامسة قبر الرسول بالأصابع . وجاء في رسالة الوزارة أنه نال اطيب وفاة يمكن لمؤمن أن يتوق إليها . وافاه الأجل عند قدميّ محمدّ رسول الله . مات من شدّة الوجد والتأثر . ودفن جثمانه في حفرة مشتركة عند باب المدينة المنوّرة . وأقامت الأسرة حفلا فخما بهيّا . دفن الغائب . سبعة من الأيام ومن الليالي للصلاة . واستفاقت الأرملة الحرّة ذات ليلة على صورة الأب الشيخ وقد تستّر وراء حجاب مذكّرا بوصيّته :

لقد أرسلتم بي لأموت في صحراء تقدّر فيها حياة الانسان بالعدم . تحتفلون وأولول غيضا في هذه الحفرة التي تطفح جيفا والتي يلتقي فيها الموسر والمعوز ، ذو العاهة وذو الجاه . إنّه لعار شديد . لقد كنت أهلا لموت على قدر منزلتي . ها أنا وسط

جثث يفترس بعضها البعض الآخر ولا تولي لأيّ شيء احتراما . إنّنا في انتظار يوم الحساب . ها نحن ولا من يسوس ولا من يقضي بيننا وقد عمّ الشغب والرأس على العقب ، في جوّ رطب حار يبعث على السبات . ولا من منصت تكلّمه . لقد قضّيت العمر في الصلاة وفي عبادة الله . والحصيلة !؟ لا شيء . جثّة بين الجثث . كنت أظنّ أنّي توفّقت إلى محو ذنوبي كلّها . تكلّمت منّي الاعضاء . أفرغ كلّ واحد ما علق بحافظته . لقد كان سلوك اليد اليمنى طيّبا . لقد سهت عن ذكر بعض الأشياء . أمّا ذكرى فقد كان على عكس ذلك ، مهذارا . هلكت . سأجد ، لا محالة ، مخرجا من هذا المأزق . أنا أمقت هذا القفر . فلا تنسوني إذن . سأعود عمّا قريب . لاتمتدنّ أيديكم إلى متاعي ، لا تعطوا شيئا إلى المساكين . فلا نفع من ذلك ! اتّضح لي ذلك الآن جليّا . أنا أكره المتسوّلين . والحقّ أني كنت دوما أكره المتسوّلين والفقراء . إنْ أعوزهم الحال فهم المذنبون . وبعد كلّ ذلك فتلك مشيئة الله ، فليطعمهم إذن . كلّا ، لست المتكلّم . إنّه الشيطان . لقد استولى عليّ فدخل جسمي واستقرّ به كما تستقرّ الحمّى . يحملني على التفوّه بالفظيع من الكلام ويترك لي من صفاء الفكر ما يكفي للتوبة . إنّه الجحيم . وأنا الذي ظننت أنّي سأجد نفسي في الجنّة ! لا ينفع في شيء إن أنت أحسنت إلى المعوزين ، ولا حتّى في شيء واحد ! إذن كونوا على أهبة ، أنا راجع . أكلّمكم من المدينة ! عمّا قريب سأحلّ بالقيروان ، سأتوقّف بعض الوقت في تلمسان لقضاء بعض الأمور ثمّ سأرجع إلى منزلي لمدّة شهر . سأفاجؤكم . فلتهيؤوا لي قبرا

بحديقة الدار الكبيرة فيه المرمر والمرايا وحوله نباتات لحميّة ودودات . إنّي أرغب في أن تكون معاملتي بما يليق بمنزلتي وعنصري . إنّه لمن العار أن يلقى بسيّد بين العبيد حتّى ولو اعتقوا . ولعلّها غلطة وليست عارا . لو نقلت إلى منزلي لغفرت لكم قلّة المراعاة هذه .

أيتها المرأة ! إنّي آمرك بأحترام شرع الارث . لا تنسي فاطمة الزهراء ولا « ضاوية » ابنتي . وأمّا الأولاد فليتابعوا تعلّمهم وليسهروا على مصالح الأسرة . لا بدّ أن يصبح ابني الأكبر محاميا ، محاميا كبيرا وأن يجري إلى المليارات . ذلك في مستطاعه . لن يقع في شرك الشفقة والسخاء . إنّ هذا البلد لمن المعجزة ! إنّه مجنون إلى حدّ يمكّنه من تحقيق كلّ فكرة صائبة ومن كل التجرّآت . بلد لا يحصره حساب ويحتوي على كلّ الحيل . أنا لا أحبّ هذه الكلمة . لقد أفلتت منّي . ما ذهبت إليه هو أنّه بإمكانك أن تجد كلّ حلّ في هذا البلد . على كلّ ، ليس الوقت وقت تأمل في حالة البلاد . وعلى عكس ذلك حالي ، فأنا أختنق في هذا المكان وقد عيل صبري . لا زلت في انتظار عيادة الملكين الخبيرين في احتساب حسناتنا وسيئاتنا . لهما من الشغل الكثير في هذه السنة . لقد مات الكثيرون أثناء الحجّ . هناك أيضا الماورائيات . لن أحدثكم عنها لفرط ما أشعر به من حرارة . آخر ما أوصيكم به . لا تؤذوا فاطمة الزهراء ولا ابنتي « ضاوية » فأنا أعلم كنه الألم .

واختفت الصورة . واضطربت نفس الأرملة الحرّة أشدّ ما يكون

الاضطراب فعقدت اجتماعا بكافة أفراد الأسرة وردّدت على مسامعهم خطاب المرحوم . كان البعض يبكي بينما تردّد البعض الآخر بين الافصاح عن الغضب والدهشة . كانوا يفضّلون الاعتقاد بأن الأرملة قد اختلقت ذلك الخطاب .

تلك رحلة الزمن . بياض مسترسل . زبد من الصمت . كفن على وجه البحر . بهذا يلتحف الزمن . وهذا وجه حياتي . عهدكم ليس بعهدي . لذلك أمرّ بكم كالفصل بالسنة . أنا لا أرقب قدوم أحد . المهدي أو محمّد ، لا يهمّ ! البلد ليس في حاجة إلى الأساطير . لقد تعلّمت في وحدتي بغض كلّ شيء رديء ، فالرداءة هي عين تلاشي العزم .

فرك اصبعيه مشيرا في اتجاه الصبيّ .

ــ سأعطيك صلة سنيّة إذا أكثرت من « الكريمة » و « السيراج » وبالخصوص إذا أسرعت في عملك .

أفرغ الطفل حككك الطلاء على جزمتي الرجل المعتدّ بنفسه . رجل توصّل إلى امتلاك جبل من المال . لقد كان الغلام يشاهده بالحيّ ممتطيا سيارة ولم يره قطّ راجلا . كان يتصوّر أن مثله لا يلبس حذاء . وبصق لتلميع الجلد . أخذ يفرك الجزمة منحني الرأس . أخفى شفرة حلاقة في الفرشاة . وانتهى إلى تلميع حذاء الرجل الذي نزل إليه من علياء جبل ماله محدثا فيه بعض الخدوش . كان يتساءل أثناء المسح هل سيختلس الساعة أم السلسلة التي كانت مشدودة إليها . كلاهما من ذهب . لم يكن هناك على وجه الساعة لا أرقام ولا عقارب . ساعة فارغة ! لا تمن بالوقت إلّا على مالكها . سيكون من العسير بيعها . الأمر أسهل بالنسبة للسلسلة . كان مسح الجزمات يساعده على تركيز الفكر والتمحيص للوصول إلى خطط جديدة للعمل . الخرقة بيديه تنزلق على الحذاء بصفة آلية . كان

يفكّر بكلّ هذا الطلاء الذي بذره . بما يوفّر لجتين . يالها من أعجوبة !
طلاء الأحذية ، كبخار البنزين ، يساعد على التمسّك بالحياة . لجة حشوها
طلاء أحذية ، تلك هي جنّة الفقراء ونشوة الجسد العاري . أمّا الحقنة
« بالكوكاكولة » في الوريد فهي تمثّل المنزلة العليا ، شيء فيه كلفة
وتعقيد . إنّ صغار الأطفال يقتصرون على « السيراج » وعلى لباب الخبز
المغموس لوقت ما في ماء قذر أو المتروك لمدّة في مدخنة الحافلة . ذلك كلّ
ما توصّل إليه هؤلاء الصبية لمداراة الحياة . أوه ، ذلك ليس بالغنم الكبير .

إنّه تحويل بسيط لمجرى حياتهم لا يدوم إلّا القليل . ما يكفي لتوهّم
ما ، مهلة لا حنان فيها قبل الوصول إلى « السبيتو » . وتلك حكاية
أخرى . ومهما يكن فهؤلاء الذراري في غنى عن كلّ أخلاق حميدة وعن
كلّ بركة وشفقة . إنّ الشفقة تخنق كلّ ما تقع عليه . إنّهم يأكلون ما
تصل إليه أيديهم . ولا تتعطّل أدمغتهم عن العمل فهي تبحث على الدوام
عن المبتدع والمريك من الأعمال وخاصّة عن الخطير منها . تمتثل بالسرقة :
هم يرفضون مصير صغار النشّالين . ولا يتطاولون على البنوك كذلك .
وليس بهذا المكان من يتطاول على البنوك . لا أحد ؟ لست على يقين من
ذلك . ومع ذلك فقد ألقت الشرطة منذ أيام القبض على « محا » بسبب
مشكلة حدثت بأحد البنوك . في صبيحة كلّ يوم ، بين الثامنة
والتاسعة ،أي عندما يتوجه العملة إلى مقر شغلهم ، ينتصب « محا » أمام
مدخل البنك ويخرج مزمارا يعزف عليه لحنا صغيرا فيه نشاز كثير ،
وعندما يتجمهر حوله الناس يجتذب من جيبه أوراقا نقديّة ويشرع في
تمزيقها الواحدة تلو الأخرى ، في انتظام ودقّة ، حتّى تصير إلى آلاف من
القطع الصغيرة من الورق . وكان يردف ذلك بقوله :

تأتون لربح المال وآتي لتبديده . المال ، المال يسبّب لي الصداع . المال عدم . قطعة من الورق لا قيمة لها . المال غير الذهب . ليس الذهب بالورق . احمنا اللّهم من شرّ الورق . لقد قالها الرسول . لقد رأيته هذه الليلة . المال يدفع بكم إلى الجنون ، إلى الجبن ، إلى الحقارة . أنت ، على سبيل المثال ، إنّك مسحور . ستموت يوم الثلاثاء . وأنت يا من تظاهرت بالنظر إلى مكان آخر ، إنّ بك داء تستحي من ذكره . خجلت ولكنّ البِر يعلو جبينك . إنّه المال يصيّركم إلى الدمامة المفرطة . المال ، أنا أعرف كنهه . لقد بعثني الرسول لأضع حدّا له بينكم . آخذه بالمساء وأمزّقه عند الصباح . إذا هو وقع بين يديّ فقد قضي أمره ، لن ينتقل إلى أيد أخرى . أنا أوقف المال . أنا أوقف السرك ...

وانبرى رجل من بين الجمهور صائحا : « اقبضوا عليه ؛ إنّه مجنون ، إنّه جاحد . يمزّق المال بهذه الصورة ! كان عليه ، على الأقل ، أن يعطيه للمساكين ! فليدع أحد منكم الشرطة . يجب إيقافه ؛ إنّ هذا الرجل خطر على مجتمعنا وعلى ديننا . قال تعالى : إنّ المبذّرين إخوان الشياطين . أما ترون ذلك مكتوبا على صفحة وجهه ؟! إنّ الشيطان قد تملّكه . أبعد الله عنّا أذى الشيطان وقرّبنا من رحمته ! ادعوا معي ؛ يحفظنا الله ! » أحدق الغمر بـ «محا» . بعض الأيدي امتدّت نحو سترته لتفتيشها ، أوراق نقديّة منتثرة على الأرض . بعض الأطفال يحبون لجمعها . كانت سيارة الشرطة قد وصلت لمّا أغمي على « محا » وخرّ على الأرض . هرع ماسح

الأحذية الصغير . كان يقول في قرارة نفسه إنّها قد تكون فرصة سانحة لعمل مربح في هذا الصباح الشاحب من يوم الأثنين الشبيه بكلّ أيام الاثنين . يوم كاسد في أغلب الأحيان بالنسبة للصبية . يأخذون فيه قسطا من الراحة ؛ يذهبون إلى أحواز المدينة للفسحة وصيد العصافير . هم لا يأكلونها بل يبيعونها في السوق . يمرحون في الحقول . يكشفون عن ذكورهم لبعضهم البعض . يداعب بعضهم البعض الآخر . يصطحبون أحيانا إلى الحقول منخرطا جديدا في صفّهم يكون في أغلب الأحيان من أبناء المدينة ، من أبناء الموسرين الذين ملّوا مدينة والديهم . عند الغروب يعزون إليه أنّه لا بدّ من نزع سرواله . يطيعهم ابن الحضر إلى ذلك طالبا إيّاهم أن لا يوجعوه . دعابات عشوائية لا خطر فيها . ذلك هو الثمن الذي يجب دفعه لقضاء يوم مع صبية الأراضي المهملة الطليقين . إنّ الأولياء بالمدينة يخافونهم لذلك يعملون على حماية ابنأهم بالتسلية البريئة . لا علينا ! لن ينال أبناء المدينة لجة محشوّة بالـ « سراج » . « كيوي » هو أكثر أنواع الطلاء شهرة ؛ لقد عزّ بمحلّات بيع العقاقير . إنّ طلاء الأحذية القوميّ لا يحث على الحلم ، إنه غير قادر حتى على تلميع الجلد . يسخر منه الصبية . عمّا قريب سيشرعون في تعاطي « السبيريتو » .

رأى ماسح الأحذية الصغير « محا » وعرفه وسط الحشد . كان الصبية يجتمعون عنده من وقت لآخر في كوخ منصوب على رصيف تقدّم في البحر . وكان يأتي لهم بشيء من الفواكه وبالسجائر الأمريكية . كان يمدّهم أيضا بمعلومات مفيدة ، لأنّ « محا » يعيش في شجرة له فيها شبكته

الخاصّة للاستعلام حول بعض الأحياء الموسرة . هو شخصيًّا لم يرتكب قطّ سرقة ولكنّه كان يقوم بدور الوسيط بين الصبية والملاّكين .

أسرع الماسح الصبيّ لاستنفار الرفاق . سيعقد اجتماع عام بالكوخ هذا المساء .

ـ يجب إخراجه من السجن .

ـ إنّه ليس بالسجن بل بمستشفى المجانين .

ـ تلك نفس الحال .

ـ إذن سهل أمر تنظيم هروبه .

ـ يكفي أن نرشو الحرّاس .

ـ نعم ، أنا أعلم ، يمكنك هنا أن تفعل كلّ شيء إذا كان لديك مال يجب علينا أن نجمع بعض الأوراق النقدية .

ـ لننظر ما لدينا بالكنز .

ـ أيّ كنز ؟

ـ كنز السلام (ضحك جماعيّ)

ـ لدينا بعض الأشياء ولكن ليس لدينا مال .

ـ يمكن أن نطلب من سكّان المدينة القصديريّة أن يكتتبوا ...

ـ ممكن ، ولكن من بينهم واشون .

ـ إنّ الواشين يخافوننا ، إذن ...

ـ لنمزح . سنستلهم الشجرة أوّلا ثمّ نبري للعمل .

وسلّمت الشرطة بأنّ « محا » مجنون فأطلقت سراحه بعد أن احتفظت به بضع ساعات لأخذ صور . وكان بعض الأعوان يدغدغونه على إبطيه بغية الضحك فيبكي لذلك .

« محا » لا يبكي أمام الناس وإنّما يبكي أمام غروب الشمس ، أمام الشجرة ، أمام البحر . الأطفال يؤثّرون في نفسه أيّما تأثير والنساء يأخذن بمجامع قلبه ، أمّا رجال هذه الجهة من الأرض فلا .

وذات يوم عاد إلى الدار الكبرى متطلّعا إلى ما آلت إليه . فإذا هي قد عصّرت أيّما تعصير حتّى لكأنّها ديكور لأحد الأفلام السينمائيّة . لقد تبوّأ الابن الأكبر الحكم وانصرفت « دادة » ، ذهبت لتعيش مع ابنتها وأخذت الأرملة البيضاء في تطرية وجهها بمختلف أنواع الماكياج إلى حدّ الغلوّ وأمّا عائشة البنيّة الصغيرة فقد اختفت في الغاب فقيل إنّها قد أكلتها غولة الظلمات تلك التي فقدت بصرها على ضفّة النّهر . وكان الأطفال قد كبروا وانعقدت عدّة زواجات أقيمت بشأنها احتفالات فاخرة ذات أبّهة وهيلمان . وحدثت صلات وأوثقت معارف وأثرت الأسرة إثراء كبيرا فلم

يعرف « محا » ممّا عهده من قبل إلّا القليل : الحديقة والجدران والتهيّات وبعض الزّوايا .

وكان الجميع في حالة حركة وغليان يعدّون العدّة للاحتفال بحدث ذي شأن . وحسب «محا» أنّ الأمر يتعلّق بزواج جديد أو بحفل ختان أو برحيل أو عودة ما أو بلقاء أو أقتناء شيء جديد . ولكن « محا » لم يكن على صواب . ذلك أن الابن الأكبر كان يتأهّب للاحتفاء بمليباره الأول . لم يكن « محا » يعلم أنّ مثل هذا الأمر ممّا يحتفل به وكان ذلك والحقّ يقال من العادات الجديدة التي سنّتها أرستقراطية رجال الأعمال الذين يلعبون بالأرقام وبالبشر . مليار ! انتصب محا في إحدى نواحي الحديقة وأخذ يعدّ على أصابعه فاختلطت عليه الأرقام . فتخيّل جبلا من الدراهم والنقود ولكنّه رأى فيه أيضا حريقا هائلا لا قدرة للبشر على إخماده . ثمّ تخيّل بعد ذلك منجما من النقود مترعا بقطع من ذهب . ونظر إلى قاع المنجم السحيق فرأى حفنة من الصبيان عرفهم بأشخاصهم فقهقه ضاحكا وشرع في ضروب أخرى من البحث ففكّر في البنك . فكّر في بنك من البنوك . لا تكفي جميع صناديقه لاحتواء كلّ ذلك المال . بنك يسقط أعوانه مغشيّا عليهم أمام كلّ تلك النّقود . كان يحلم ويعيد بناء العالم في دماغه . وفي دماغه زوبعة ، وفي دماغه إعصار وفرقعة وهوى . صحيح ! هوى ! أوليس والد من سيصبح السيّد مليار هو القائل بأنّه يمكن للانسان في هذا البلد أن يسمح لنفسه بركوب رأسه وتحقيق أهوائه وأنّه بالمال يبلغ الانسان جميع ما يحبّ ويشتهي ؟ ومهما يكن من أمر فإنّ ثروة الابن مرتكزة في جزء منها على الريح . الريح في هذا البلد تدرّ بمثل ما تدرّ به الشمس أو

أكثر . فهو يتاجر بعرضه في الوكالات كما يتاجر الآخرون بعرضهم في بيع العقاقير والأبازير وكالة تأمين ووكالة أسفار ووكالة تنقيب ومكتب أعمال ... وكل ذلك بفضل مباركة الأم . وتلك قضية أساسيّة فللأم على الابن جميع أنواع السلطة والنفوذ . فلها أن تسحب مباركتها لأعماله فيحلّ به الافلاس وتجتاحه الفاقة . وفيما يخصّ الابن ، فإنّ كلّ الأمور تسير حسب عدد معلوم من المبادىء ، مبادىء بسيطة ، مبادىء فعّالة ، خاضعة لقوانين علم الحساب الصارمة .

وانبرى السيّد مليار مستقبلا في تلك اللحظة بالذات وقال لـ « محا » :

لا يا « محا » ! ليس هناك بساطة في الأمر . أمّا الفعاليّة ، فأنا معك في ذلك . ولكن ليس ثمّة خضوع لقواعد علم الحساب بتاتا بل الأمر بعكس ذلك تماما . وكيفما كان ، فأنت قد انعزلت ناحية فأخذت لنفسك أحسن الأدوار وأسهلها : فأنت تنظر إلينا من بعيد ثمّ تنصرف فتكتب كتيّباتك . ما أسهل النقد كما قال فلان ولكن الحياة والكدّ في سبيل الحياة ليسا في متناول سائر الناس . ثمّ إنّك تصدر الأحكام . تحكم وتقضي ولا تجيد إلّا ذلك : ذلك يسير ويسير جدّا تعال ادخل معنا الموحل الذي نحن فيه وسترى كم أن الأمر عسير . أنا صاحب مبادىء أمّا أنت فمعلّق في الهواء وكأنّي بك دائما بعيد كأنّك في مكان آخر لا قدرة للانسان على ضبطك . أفتظن أنّ الحياة تقنع بالكلمات ؟ إنّكم تلوذون بدغل من

الألفاظ تبتغون به إعادة خلق العالم ، تبتغون إقامة صراع الطبقات . يا للوهم وهمكم ! فالبلاد ليست في حاجة إلى الكلمات والألفاظ ولا إلى الشعر بالخصوص ، إنّها في حاجة إلى التقدّم والتقنيات الحديثة. أما الشعر فقد كان محمودا في عهد الدولة العباسيّة وعصر الأندلس ، زمن الهدوء والمجد والسّؤدد في تاريخنا . وأمّا عن صراع الطبقات فما تلك إلا فكرة من الأفكار المستوردة، دخيلة على أوضاعنا وواقعنا ، مفسدة لمجتمعنا . صحيح أن للناس مصالح متناقضة لكنّنا ننادي بتحرير عزائم الأفراد وإطلاق مبادراتهم (هذه الجملة لا بأس بها والله ، سأحتفظ بها لاستعمالها أثناء حملتي الانتخابية ! وماجاء فيها ليس من باب الدمغجة لأنّي أومن به ثابت الايمان !) إنّ الذي أتعاطاه وأقوم به من أعمال أمر لا يتقنه ولا يستطيع القيام به إلّا عدد قليل من العرب. لقد زاولت دراستي وأنا منكبّ في نفس الوقت على تسيير شؤون أبي المالية وكان قد أضاع رشاده لفترة ما بين أصفاد تلك الزنجية . وأمّا أنت فقد كان التفلسف أحبّ إليك فربكت في أوحال هذه الربيكة من الكلمات والجمل الغامضة وقد نذرت لله نذرا لتكوننّ من الفقراء ولكنّك لست بالفقير . إنّما أنت رجل ضعيف لم ينجح في حياته ! تلك هي الحقيقة . ترى ما تنفع الكتب التي كتبتها لا سيما في هذا البلد الذي لا تحسن فيه الأغلبية الساحقة من سكّانه لا القراءة ولا الكتابة ؟ لقد كان عليك أن تنتصح بنصائح أبيك فتزاول دراسات ذات فعالية كالاقتصاد أو الصيدلة أو الهندسة المعمارية ... ولكنّك فضّلت

الانتصاح بنصائح رجل يسكن لحاء إحدى الأشجار ، ذلك الصعلوك المتسول المجنون . أمّا أنا فإنّ حرفتي مبنيّة على النزّاهة التي ما بعدها نزاهة فأنا أمارس أعمالا دولية ، وأمارسها مغمض العينين فالغربيّون قد أولوني ثقتهم وأنا أنجح في كلّ ما أشرع فيه من مشاريع وإن كنت لا أمتلك لا المفاتيح لذلك ولا العبقرية . وأنا مفتوح العين كذلك ! فالله ربّي هو الذي بيده المفاتيح ولكنّه ليس ربّ المتصوّفين ، إنّما هو ربّ الحياة المحسوسة ، حياة الأرقام والاحصائيات . إنّ لي خمسا وثلاثين سنة من العمر ومليارا من المال وقد وضعت ثروتي ومصيري بين يدي الله ويدي أمّي . ولئن كنت ثريّا فالفضل يرجع إليهما ، إنّ ثقتي في الله وفي أمّي كاملة . أمّي ، تلك المرأة الباهرة . لقد تألّمت في حياتها مع أبي وحينما عاد من الحجّ مصطحبا إحدى الزنجيّات كان موقف أمّي من ذلك موقفا مشرّفا . وهي لا تنفكّ تصلّي وتدعو . تدعو لي : تدعو لأعمالي التجارية بالنجاح وأنا أعرف أنّ لدعواتها حولا لا مثيل له . وقبل الشروع في أيّة صفقة من الصّفقات أتوسّل إليها طالبا منها أن تبارك عملي . وعندما أسمع أدعيتها أشعر بالحقارة والصّغار . هذا وقد اشتريت مسجّلة صغيرة أصبحت أحملها دائما إمّا في جيبي أو في محفظتي ، أدير زرّها وأستمع إلى دعاء أمّي وابتهالاتها . فيثير فيّ دعاؤها إقداما وقوّة ورباطة جأش . إنّها لامرأة رائعة . بعد موت الوالد نذرت نذرا مقسمة بالله في المسجد لتبقينّ وفيّة لزوجها وهي امرأة عصريّة . وأنا أغمرها بالقبلات والجواهر وعندها تغدق عليّ دعواتها وبركاتها . وتفاجئني أحيانا ، وذلك

عندما تدعو لي الدّعاء المناسب الذي يتطلّبه الوضع . وهي مثقّفة ، ثقافة داخليّة والحقّ يقال . لأنّها على غرار جميع الأمّهات عندنا لا تحسن لا الكتابة ولا القراءة . وأمّا القرآن فهي تجيد حفظه . ويطيب لي الاستماع اليها وهي تتحدّث عن المستقبل . لقد بلغت الشركة بيننا حدّا أصبحت معه أشعر أحيانا بشيء كالخجل يصّاعد في نفسي فيغمرها . وما ذلك في الواقع سوى حبّ الابن لأمّه . حبّ خالص خاضع . ولقد كانت زوجتي أوّل عهدنا بالزواج تغار منها بعض الشيء . دعاء واحد من أدعية أمّي رجعت بعده الأمور إلى سالف نظامها . وأصبحت زوجتي تحبّ أمّي ، بل تعبدها عبادة ، حتّى أنّها لتفضّلها على أمّها هي . زوجتي جميلة . وهي متعلّمة ؛ ليس كثيرا والحقّ يقال . فهي تحسن تربية الأولاد وتسيير شؤون المنزل والارتفاع إلى المستوى اللائق حين نستضيف رجال الأعمال الأجانب . زوجتي سعيدة وهي راضية متهلّلة الوجه ، وأنا أحبّها منذ الأزل . إنّي بين أمّي وزوجتي لكطفل سعيد . أنا سعيد وقد فعلت كلّ شيء وهيّأت كلّ شيء لذلك أدخل وأخرج على ذوي السلطة والشأن كما أشتهي وأشاء . أنا رجل واقعيّ وذو خيال خصب ، تعلّمت في ظرف عشر سنوات فقط كيف تسير البلاد والعباد . فالمسؤولون مثلا : أنا أعرف كيف أخاطبهم بما يفهمون . وأصحاب السلطة والنفوذ : أنا أعرف كيف أقنعهم ، على أنّ إقناعهم كثيرا ما يكون فيه ما فيه من الحرج ولكنّنا نتّفق . وأمّا القلق الأعظم فإنّه يكون عندما يحدث تغيير في المسؤولين عن المناصب الرسميّة ففي البداية

نتحلّى بكثير من الحيطة والحذر ونجسّ النبض لأنّ هناك أيضا في هذا البلد أشخاصا نزهاء عدولا فضلاء وجدّيين . فلا ينبغي للمرء أن يصدّق جميع ما يسمعه من شالعات الأقاويل . فهناك فعلا من الموظّفين من يقوم بعمله بنزاهة ويعيش قانعا بالكفاف وما هؤلاء في العادة إلّا من سذّج القوم . ولكنّهم سرعان ما يتغيّرون وذلك لأن الأمر يفوق طاقتهم فللآلة منطقها الخاصّ وهي مزيّتة أحسن تزييت وإنّما هي آليّة منظّمة مبرمجة ، ومتى أراد أحدهم إخراجها عن السكّة المرسومة لها فهو وحده الذي يخرج عن السكة . الله غالب علينا وعليه ! فماذلك منه إلّا من باب قلّة الفطنة والحصافة . وليس ذلك حتّى بمسألة سياسيّة . كأن تقول قضيّة صراع اليسار واليمين . فالدّودة مستقرة في الدّماغ والدّماغ هو الذي أصيب . فما هي إلّا ثقب وثقب سحيقة وما هي إلّا بحيرات وبحيرات عليها ذباب كثير . وليس بالذّباب ما يدعو للتشكي والتذمّر وكذلك العنوز . كنت أقول إنّ الدّودة ... نعم القصّة قصّة الثمرة والدّودة . لم أعد أعرف كيف يقولون . والمهمّ هو أن يعرف الانسان كنه القضية ولكن هناك بلهاء تقودهم الأوهام . التنظيف ، إنّ ما ينبغي تنظيفه ليس مجرد منزل من المنازل وإنّما هو تراب بلاد كاملة بل قل قارّة من القارات بتمامها وكمالها . وبلهاؤنا هؤلاء ليس لهم في الخيار أبواب كثيرة : فإمّا أن ينتظموا بنظام ومنطق السائد من الأمور وإمّا أن يتعرضوا لسحق الآلة العظمى ، تدكّهم دكّا . وليس لهم خيار البتّة في الواقع . وإنّما لهم الحيرة لا غير . (آه ! هذه نكتة ظريفة ينبغي الاحتفاظ بها في

الذاكرة !) أمّا أنا فمنسجم التفكير ، متماسكه . فأنا أعيش ويعيش غيري بعملي . لو أوقفت كل شيء . في استطاعتي أن أعطّل كل شيء . لكنّني رجل رؤوف بالبشر وأخشى أن تغضب علي أمّي . أمّي إمرأة طيّبة وهي تعرف معنى الشفقة والعطاء فما عسى يكون مآل أولئك الذين يعيشون من عملي ؟ أنا إنسان رؤوف بالناس ومؤمن كذلك . لقد كنت شيوعيًا لفترة ما عندما كنت طالبا . كان ذلك من ضلالات المراهقة بل قل كان ذلك من باب اكتساب تجربة ما : فكما جاء في المثل « أسبق منك بليلة أزيد منك بحيلة ... » ولكن الواقع هو أنني لم يسبقني ولا تجاوزني أحد . أنا لا أتعاطى السياسيات . ومنذ بضعة أيام وقع إضراب بمصنع الأحذية . ستندهش مما سأقوله لك : لقد كان إضرابا مشروعا . أنا أعرف ، فالأجور ليست مرتفعة . ولكن ذلك هو الوضع . إمّا أن يقبلوا وإما أن يتركوا العمل . أشغّل عائلات بتمامها من الأب إلى الأم بل وحتى الى الأطفال ، أعني من هم في سن تسمح لهم بالعمل . كان الاضراب مشروعا ولكنه خسّرني ما خسّرني من مال . ومع ذلك لم استدع الشرطة ! بل استدعيت محاميّ فرفع قضيّة عدلية بتهمة الاضرار بالأجهزة عمدا والتسبب في ضياع جزء من رأس المال . وقد كان هذا المحامي خارقا للعادة : فلم يكفه ما حصل من استئناف للعمل بدون تلبية أي مطلب من مطالب العمال بل توفّق كذلك إلى التعرف على هوية المسيّرين للإضراب وإلى إدانتهم والزجّ بهم في السجن . أما أنا فقد تخلّيت عن المطالبة بجبر الضرر . لأنني شخصيًا مع القانون . فأنا في حالة امتثال

لمقتضيات القانون . ممتثل في كل شيء ، ممتثل بالنسبة إلى الله ورسوله ، ممتثل بالنسبة إلى أمي وزوجتي ، ممتثل كذلك بالنسبة الى المجتمع والدولة . أنا ممتثل وكفى ! خذها عنّي . اذهب الآن واكتب كتيّباتك فقد تصبح ممتثلا لمقتضيات الألفاظ والكلمات ولكن لن تكون كذلك مع الناس ومع أملك ولا مع الدولة ومع المجتمع .

بعد هذا الوابل من الكلمات سرت إلى الجبل حيث انزويت ألتمس شيئا من الماء وبضع زيتونات . كنت محموما . وكانت الأرض تتشقّق تحت أشعّة الشمس فإذا هي أخاديد . وعندئذ رأيت . كان الحصان المجنون وسط السهل . وعلى صهوة هذا الحصان جسم رقيق هشّ . وكانت شجرة التّين قد انحنت . ومن جديد عاودني الصمت ونتف من صوت أليف ، صوت طفلي الذي كان في قبضتهم .

أنا أسمعه

أنا أراه

ها هو الباب ينفتح . وها هي بعض الأيدي بقفافيزها تحلّ وثاقك . وعلى عينيك نفس تلك العصابة من القماش الأسود ، إنّهم يدلّونك السبيل . لقد نسيت رجلاك الخطو . لم تعد تعرف المسير . نسيم الصباح بارد غسلته أرياح الليل . العشب مخضلّ . إنّك تتقدّم وقد انقطعت عن التفكير . تريد أن تتنفّس الهواء وأن تمرّر يدك على جسم العصفور تداعبه . وهاهي ريح الصباح تمرّ على وجهك . ويد ابنتك الباردة على فمك . إنّك تضحك . وها قد أدخلت أصبعها بين شفتيك . يتعالى ضحككك . وهي تجري في البستان وتتوارى خلف الشجرة . محرّك السيّارة يتعثّر قبل الانطلاق وها أنت تفكّر في إمكانية وقوع حادث ولكن هيهات فلا حوادث أبدا في مثل هذه الحالات . سيصابون كلّهم بجراح أمّا أنت فستنطلق للالتجاء عند بعض الفلاحين . لقد سارت السيّارة مدّة طويلة . لعلّهم داروا في حلقة مفرغة لخداعك فقط . لايهامك بأنهم قادوك إلى مكان آخر ، سرداب في مدينة أخرى . متاه آخر . بئر من الآبار يسكنها

وليّ من الأولياء . شجرة تحمي المجانين والأطفال . ثم استؤنف كل شيء .نفس الأسئلة . نفس التهديد والوعيد

وأنت
يدك
في مكان آخر .

أنت كالجمل . بل أنت الجمل . أمير الصمت العميق . جمل أضاع موطنه وسيّده . لقد وصلت محمولا على حنين النشيد وبطنك سهل منبسط وعينك مخضّلة . كنت تذري البخور في أحياء المدينة وتخاطب الرجال العور والأطفال . وقد تبعك الجمل وسلّم جرار العسل إلى مقتنيها ثم حمل المواطنين العائدين إلى أوطانهم . كنت تتكلم عن شمال البلاد . تتكلّم عن الأرض . والأرض كانت تنفتح . الأرض تنفتح لكلّ من يبذلون المحبّة والوداد .

بضع ليال . بعض أحلام . جسمك معلّق . رأسك مصلوب الى أسفل . لقد خفت أن تضيع منك مدرة التراب وحفنة الرمل . خفت أن تشاهد أحلامك وهي تجري منفلتة مع الدّم الذي أخذ في السيلان بعد . رأسك مصلوب إلى أسفل! ترى ما الفرق بالنسبة الى العينين المعصوبتين ؟ كيف يمكن الاحتفاظ بالأحلام ؟ جميع الأشياء تبدو كأنها تنفلت منك . لقد أخذت في التفكير في ذلك الحادث من جديد . مجرد احتمال . لعلّ

الحبل ليس بمتين . تتأرجح . الضحك العصبيّ يساعدك على التأرجح . أخوك الأكبر هو الذي كان دفعك فكسرت إحدى اسنانك . المقبرة . تشعر أنها جارة الليل . الجدار كله شقوق . تخترق الحجارة بسهولة . قال لك الموتى : « الا فاكرم عشب المقبرة ! » وقعت على بلاطة أحد القبور ، وسألت النجوم . لا أحد ينصت إليك . عندئذ ناديت أمّك . كانت يداها محلاّتين بسوارين من ذهب . قصّت عليك قصّة . نفذت يدها البيضاء الى داخل قفص فأخذت منه يمامة . ضمّتها إلى صدرها . كان بخور الجنّة قد تسبّب لها في دوار . فكّرت في الموت من جديد . في موت ابنتك . تأرجحت بعنف شديد اصطدم معه رأسك بالحجارة الخشنة . الاسمنت بارد . لقد احتفظ في صلبه بإحدى السواقي . الماء يقطر قطرة قطرة في تلك الليلة السامقة في السّماء . الخلط من جديد . والشمس في غيبوبة . استعصت الذكرى . إنها السآمة . كالعين وقد نضبت .

اليد

الصرح الوحيد

البهي

في شعر

البحر

إنّها تطلّ على النافذة . لقد تقشّع الألم الجسماني لكن نور النّهار مازال محجوزا صادرته أيديهم . لقد عوّضت العصابة السوداء بأخرى . نسيجها أغلظ . أمتن . أسئلتهم تدور في أمعائك . لقد أحرق الملح أمعاءك . الحبّ في قلب السهل . كانت مختمرة في خمار أزرق . أنت تحبّ عينيها . كحنانك على الطائر اليتيم . الطائر يأكل العسل على شفتي نور النّهار . الزّبد المدبر مثل تكاسل خطاك على الرّمل . الزبد ترك على قدميك قليلا من الملح . تقول في نفسك : « الماء سياسي ! » في بلادك تقسيم الماء قضية سياسية . مثلما هي الحال في قسمة الأرض وشجرة الزيتون على أن قوّات النظام العمومي هي التي بادرت بإطلاق النّار . أما الآخرون فقد دافعوا عن أنفسهم بما كان في مقدورهم . بالحجارة ، بالفؤوس أو ببعض بنادق الصّيد . وكيفما كان فأنت لا دخل لك في القضية . بمعنى أنّه لو كنت مع أولئك الفلاحين لقاتلت أنت الآخر . ولكنّهم ألقوا عليك القبض ليتّعظ الناس . فليس لديهم تهمة مضبوطة يوجهونها إليك . صحيح أنّ لك أفكارك الشخصية فيما يتعلّق بسير الأمور، ولكنك لا تنتمي إلى حزب معيّن. مجرد شرذمة هذا ما في الأمر. أنت في السجن من أجل جنحة فكرية. من أجل تلبّسك باقتراف جنحة فكرية ولهذا فإنّهم يريدون أن يعرفوا كلّ شيء. كم من شميسات آقتنصت في رأسك ؟ وكم من وزغة بعثها لذلك المشعوذ ؟ وكم من طفل جررت معك إلى ذلك الجرف ؟ كم من قطعة سلاح دفنت في الأرض ؟ ثم إنّ هناك أحلامك أيضا . أحلامك محرجة ثقيلة . إنّها طافحة بالألوان والألحان . إنّها تخونك . أنت تضحك ساخرا من الكلمات التي تضعها الريح في غضون حائط السّور . تضحك لأنّ الربيع يرجع بأنشودة الأطفال الذين تاهوا في الغاب . لقد قلت ذات يوم : « لقد ولد صراع الطبقات على هذه الأرض المغتصبة » ولقد عشت ردحا من

الزمن طويلا بدون حبّ . فاحتفظت بذكرى هذه الأرض المكلومة . كل هذه الأجساد التي جرّدوها من ممتلكاتها. هذه الأجساد العارية التي حيل بينها وبين الحياة . وها هي ذي مرآة ترقص . تمدّ يدك . الجوّ بارد . لقد فتحوا الباب . إذ قد حان وقت تناوبهم عليك . لقد بدأت الآن تعرفهم بأشخاصهم شيئا فشيئا . إنّك تميّز الصوت والضحك . هم في العادة ثلاثة . هناك فريق الليل وفريق النّهار . وهم يتبادلون الحكايات أثناء القيام بعملهم . إنّها حرفة من الحرف . حرفة ليست كبقية الحرف . لم تكن تتصوّر تلك الأمور . كان الرفاق يحدّثونك عنها . ولكن كان لا بدّ لك من المرور بها شخصيّا لكي تفهمها على حقيقتها . وكيفما كان دعنا من هذا ! المهم هو أنّهم هنا وأنّهم على وشك الشروع في شغلهم . واحد منهم يدخّن دخانا إنقليزيّا . أنت تكره ذلك النوع من السجائر . على أنك تفضّل تركيز انتباهك على تلك الكراهيّة . إنّ الدخان يبعث فيك الغثيان لا سيما إذا كنت خاوي البطن . إنّه يدخن بدون انقطاع ، ولا بدّ له من التدخين حتى ولو كره ، لأنّ عليه بعد قليل مباشرة عمليّة سحق هذه السجائر الأنقليزية اللئيمة ــ الدّسمة ، ذات الطّعم السكّري ــ على جسمك . إنّك تفضّل الانشغال بكراهية الدخان لكي لا تكون موجودا في ذلك الحين الذي ستثقب فيه جمرة السيجارة بطنك . إنّك هذا الصباح تشعر ببعض الصعوبة في الارتحال بعيدا عنهم . فالدخان لا يكفي لذلك . ولهذا فأنت تتساءل هل هو يحب التدخين أم أنّه يفضل إطفاء سيجارته على جسدك . إنّ أفكارك لضئيلة اليوم . وصور خيالك ضبابية المعالم . جميع الأمور بصدد الانفلات منك . لا مناص لك بعد حين من المرور بتلك المحنة . فتمنّ إذن أن يكون الألم من الشدة بحيث يحملك ويدفع بك في غيبوبة طويلة عميقة ...

لقد حفروا بعض الثقب في صدرك . عندما أغمي عليك أنعشوك . قذفوا على وجهك بعض أسطل من الماء البارد كالثلج . كانت استفاقتك كارثة . استراتيجيتك في تخاذل . أصبحت عاجزا عن تغيير مجرى الألم . لقد وقعت في شباكهم . يعرفون ذلك ويتضاحكون . بل ومنهم واحد زاد على ذلك فانحنى عليك قائلا : « لا مؤاخذة يا بنيّ . لست الآمر الناهي . أنا لا أعرف حتّى لماذا أنت هنا . أقوم بعملي . واجبي أن « أطبخك » ، أن أهيئك للفريق الثاني . فريق أربطة العنق . من الممكن أنّنا لو تقابلنا في المدينة لنشأت بيننا علاقات صداقة ووداد . أنا أيضا أعتبر أنّ مثل هذه الممارسات من البشاعة بمكان (قهقهة عالية). لكن لا مناص من احترام قواعد اللعبة . أنت الذي تجبرنا على القيام بهذه الأعمال التي تشمئز منها نفوسنا . فلو تكلّمت ولو أعطيتنا خمسة عشر إسماً فقط لأوقفنا عملنا . الوضع مرّ . أنا لي ابن أصغر منك بقليل ولكنّه لا يمارس السياسيّات بالله يا بنيّ استعدّ . أمّا نحن فقد انتهى عملنا . ستمرّ الآن إلى مصلحة أخرى . المصلحة الواقعة في الطابق الثالث تحت الأرض . والجماعة هناك ، أمرهم بسيط : هم أشبه شيء بالآلات . لا شيء في قلوبهم من مشاعر الانسان . زد على ذلك أنّهم من الأجانب . فنيّون من الخارج . لا يتكلّمون لغتنا ولا يعرفون منها حتّى ولو كلمة واحدة . هم ينفذون البرنامج المسطّر ثمّ يغسلون أيديهم وينصرفون . سترى . فإنّهم لن يخاطبوك حتّى مجرّد المخاطبة . مع السّلامة يا بنيّ ! إلى اللّقاء في يوم من الأيام ...(ثمّ بصوت خافت) إن كتب لك أن تخرج حيّا من هنا !!! »

سلّة مملوءة تينا وخبزا للطفل . جاز للزّمن أن يتوقّف.كان « محا » مسكونا ، سكن نفسه ذلك الصوت الذي كان خارجا من تحت الأرض . ومشى طويلا . خاطب السماء . صرخ . ترى ما العمل مع هذا الغضب ؟ ما العمل مع هذا البغض الموجّه ضدّ تلك الأطياف وتلك الأيدي المحجوبة عن النظر ؟

وفجأة انتفض انتفاضة وأطلقها صرخة عاوية : لقد انقطع عنه صوت الطفل انقطع وسط جملة لم ينهها . لعله القلب انقصف . عوى بكلّ ما أوتي من قوّة صائحا : « لقد قتلوه ، لقد قتلوه ! » واندفع مهرولا إلى المدينة فقلب من شدّة هيجانه معارض بضاعة التجّار . أزبد وأرغى صائحا :

طفلي قد مات ! بين فكّي أيديهم الفولاذيّة ! البغضاء هي التي سفكت دمه ... ترى ما عساهم فاعلون الآن بجثّته ؟ ذلك الجسم

الرقيق ، تلك التربة التي أدركت سنّ الزّواج ... لقد شهدت ولادته كالرّبيع ينبجس بين العشب والحجارة .

أيا بنّي !
سأنازع التراب موتانا
وسأقدم
على صهوة حصان قدّ من السماء
لن ألبس ثوب حداد
أنا أضحك ، أنا أغنّي
أنا أرقص على مرايا
على سبايا الشمس
وسأقدم ...

كان في طيّات ذاكرة « محا » بعض الفلول وكانت زيارته للدار الكبرى (أو لمسرح الهيجان الفيّاض كما كان يقول بل لبلاط الحمق والغباوة والغرور المتلعّب كما كان يضيف) كانت تلك الزيارة قد تركته خاسئا مدحورا . ومع ذلك فقد كان يحسب أن الجنون سدّ سيقيه شرّ الغباوة والشّراسة. كان يشعر بالألم يأخذه في رأسه وبطنه. ثم إنه كان يتألم من ذاك المخبول الذي عمّ البلاد والعباد. يفكر في الطفل الذي إقتلعوه من المروج الخضراء لكي يخنقوه في سراديب الكراهية والبغضاء واستشهد بقول من أقوال أحد الفلاسفة وهو رجل خطا طويلا على قمم الجبال حيث يقول : « إن مكابدة الألم العميق لتشرّف الانسان . وماهي إلّا عازلة » . وضع عددا من الأقنعة على الحجارة وقرأ عليها التقزّز . لا سبيل إلى أن يكون غرق السفينة ناتجا عن مجرد سوء تفاهم .

وبعد فترة طويلة من الصمت شعر « محا » من جديد بحاجة إلى الذهاب لملاقاة « موشى » صديقه القديم ؛ « موشى » ، معتوه اليهود .

وكانت حارة اليهود وتدعى الملّه قد انقرضت منذ عدّة سنوات . فلم يدر « محا » أين يجد صديقه . وانتابته فترة من القلق : ماذا لو رحلوا بـ « موشي » إلى إسرائيل ؟ لا ! لأنّ « موشي » من شأنه أن يفضل ميتة الكلب على الارتحال إلى أرض من أراضي المنفى . ثمّ إنّه كان من تقدّم السّن بحيث لا يمكنه أن يركب الخطر فيجازف بنفسه في مغامرة قد لا تحمد عقباها . وكان يشعر بالطمأنينة وطيب النفس في بلده ذاك . صحيح كان يجد من صبيان المسلمين بعض المضايقات ولكنّه لا ينزعج أبدا . وكان إذا أفرط الصبيان في استفزازه يقصد « محا » يخاطبه في ذلك فيتدخّل لدى الأطفال وينذرهم بالكفّ عن ذاك اللعب (وقد استهدف غضب الأطفال ذات يوم كلا المعتوهين معا) .

وشرع « محا » في البحث والتنقيب ؛ كان لا يتصوّر بسهولة ذلك الشيخ « موشي » الطيب النفس وهو محبوس في شقّة من شقق المدينة المترامية الأطراف . لقد كانا ينتميان إلى نفس الرّهط ، رهط من لا يستطيع العيش إلّا في الفضاء الذي لا حدود له . واستفسر « محا » الشجرة ولكنّ أخبار « موشي » كانت قد انقطعت عنها من زمن طويل . ولم يجد شيئا إلّا عند « حرّودة » تلك العجوز ساحرة المغارات (ولا صلة لها بسميّتها مومس المدن) التي أخبرته بأنّ « موشي » كان يسكن مع أولاده بإحدى الشقق في وسط المدينة . « موشي » محبوسا ! يالسخرية القدر !

كان « موشي » حزينا صامتا لا يتكلم يمعن النظر في الجدار شاخصا بعينيه طوال النهار فاغر الفم . لقد انغلق في شيخوخته فأخذ في التعلّق بذكرياتها عاش حياة ملؤها الأحداث والضحك . ولمّا أبصر « محا » اغرورقت عيناه بالدموع فقد هبّت نسمة من نسمات الحرية والانعتاق

على ذاكرته المتصدّعة المغلولة . وكان ، والحقّ يقال ، يشعر بشيء من العسر في الانتقال من ذكرى إلى ذكرى أخرى . فكان يستقرّ في فترة معيّنة من فترات حياته الخالية ولا يغادرها . يحرّك قدميه دون أن يتقدّم ويدور في نفس المكان حول أشلاء ذكرياته . حدث خاص يعاود ذاكرته بدون هوادة : الجنود الفرنسيّون يطلقون النّار على الجماهير — من يهود ومسلمين — التي كانت تتظاهر عند مدخل الميناء . كان ذلك في أوائل هذا القرن ، إذ كان الجيش الفرنسي بصدد النزول والاستقرار بالبلاد . ونتج عن ذلك الحدث عدد كبير من القتلى . كلّهم من العمّال ، من فقراء صيّادي البحر . في ذلك العهد لم تكن الادارة الاستعمارية تميّز بين اليهود والمسلمين . واثناء المظاهرة تعرف على « محا » فقرّرا تكوين جماعة لقبوها بـ« جماعة الجنون الجهنمي » لمقاومة المستعمر . وكان الفرنسيون وجواسيسهم من أهالي البلاد لا حيلة لهم البتّة في إحباط خطط جنونهما . وكان المناضلون ، ويعرفون بالوطنيّين ، يعرفونهما حقّ المعرفة ويكلّفونهما من حين إلى آخر ببعض المهمّات فكانا ينقلان الأخبار إلى المقاومين بل كان يتّفق لهما أن يجتازا الحدود محمّلين بالسلاح . ففي ذلك العهد كان البلدان الأخوان على وفاق .

« موشي » :

أطفال اليوم رؤوسهم زاخرة بصور المستقبل وأمّا صور الماضي فليس لهم منها شيء . رؤوسهم ليست خاوية لكنّها مشغولة بأمور تافهة . أفهل تتصوّر يا « محا » ؟ فنحن قد أنزلنا الدهر إلى حدّ أن أصبحنا مجبرين على العيش في محيط من

مادّة « البلاستيك » ومادة « الفورميكا » ومن قلّة العطف والحنان ! الزمان ينقضي بسرعة ويمحو كلّ شيء محوا . ترى ما الذي تركه لنا الزمن من مزايا ؟ لعلّه هذا القليل من المكر اللطيف للّعب مع الأبديّة أو سياجا من الحسك أو سماء شاسعة تشتهي أو الحبّ والكوكب الزمردي . آه يا « محا » ! لقد كانت حياتنا طويلة رغم العفن وأنواعه . هكذا الزمن ، درر في صدفات كيس من التوابل والأبازير المستوردة من أفريقيا . نحن ، أنت وأنا معا ، مازلنا قادرين على التوفّق في تهيئة ذلك الخليط الذي سيتسبّب في انطلاق رعود من الضحك ومن الزبد . الشيء الوحيد الذي أصبحت لا أستطيع فعله هو الرقص . لقد فقدت خفّة جسمي . أصبحت أتنقّل بعسر . أولادي كلّهم مشغولون في شؤونهم وصفقاتهم . ولذلك فقد انقطعت عن الذهاب لاستشارة الشجرة . ومن أريكتي هذه فإنّني قد عقدت علاقات طيّبة مع القمر . ترى هل لاحظت قلّة صبر البشر ؟ لا بدّ أن يكون هذا من جرّاء ذلك الملل الأكبر الذي طالما أتعبنا به . يد تختنق والأخرى تداعب ماسحة . ولكن يكفي أن تتخلّص السّماء لكي نصبح قادرين على استئناف الطريق . اليوم لم يعد يتوقّف أيّ إنسان . لم يعد الناس يحطّون الرّحال للاستراحة . الحياة تسير والنّاس يتبادلون الأقنعة . شراسة الدّول وعنفها في تنافس مع وحشية الأفراد . عصرنا أخذته الحمّى والكدر . عدد من حرائق تشبّ في كثير من مواضع الأجسام . العقل في كلل وملل . وجنوننا كذلك . الجنون السفّاك للدّماء ياعزيزي «محا» قد آرتفع إلى صفّ

الأشياء المعهودة . كلّ هذا التمزّق والتقطّع ! ياله من انحطاط !
أنا أنظر إلى الأفق. إنّه مشحون بنفس السحب ولكنّه مثقل بل
ومسدود أكثر من أيّ وقت مضى بالحقائق المبتورة والأوهام
المستعرة . عصرنا عصر التظاهر والتصنّع . تلك هي دكتاتورية
الزّمان . الله ! أهذه دمعة ؟ لا ، إنما عيناي منهوكتان فحسب .
تتذكّر ابن أخي ، ذلك الفتى حسن المحيّا . لقد كتب تاريخنا
منذ أيام . اسمه عمران . آستمع إلى ما كتبه عنّا منذ حين ،
نحن يهود هذا البلد : « ليتذكّر ذلك المتذكّرون . كان ذلك
بالأمس القريب جدا شيئا فشيئا وبدون أن يشعر بذلك الانسان
في لامبالاة الحياة اليومية المتكوّنة من طفيف الأمور التي لا
أهمّية لها كان التغيير من حال إلى حال أسوأ منها لا هوادة فيه
ولا رحمة ، مثله كمثل دفقات حمم البراكين . أن لا تقهقه في
ضحكك وأن لا تتكلّم بصوت بالغ الارتفاع وأن تستر الألوان
الزاهية جدًا بستر من الاحتشام والخفاء وأن تقطع صلة رحمك
بالطعام وأن تكف عن تناول الطعام بأصابعك فتحبس إذن
اللّذة في فم مغلق ... وألّا تقول عند الألم « أح » وإنّما
« أي » ، ذلك « الأي » الفرنسي المتأدّب المحايد وألّا تقول
« يمّا » وإنما « ماما » كالفرنسيّين ، كل ذلك معناه عدد
من المحظورات المجعولة لتلقينك عدم الحياة » هذا هو ما وصلنا
إليه اليوم حيث أصبحنا أكثر عراء من ذي قبل . من قبل ،
الأجانب ، هم الذين كانوا يجردوننا من ثيابنا التقليديّة واليوم
نحن بأنفسنا ننزع عنّا الثياب ونقذف بها في حفرة الخجل .
وهنا أشعر بنفسي بصدد فقدان جنوني ، بصدد فقدان ذلك

التّصيب الطفيف من الحرّية الذي بقي لي . إنّهم ينطلقون جميعا نحو الاستيلاء على الريح . إنّهم تعوزهم الوقاحة . أرأيت ؟ كيف أن الضحك أصبح نادرا والحياة ثقيلة الوطأة . هناك كثير من الثقل في صلب هذا الهيجان ـــ الشباب تنقصهم الخفّة وروح السخرية نعم هناك من ارتحلوا دون التفوّه بكلمة واحدة ، ارتحلوا نحو الساحل الملعون .

« محا » :

إن كلّ يهوديّ يرحل عن البلد ليذهب بقليل من كياني . صدّقني يا « موشي » وسيأتي يوم أجد فيه ذاتي بلا جسم ، ليس لي سوى خيال لا غير . إنّهم يرتحلون جميعا . ولكن ترى ممّ هم خائفون ؟ يالها من مصيبة ! ويبدو زيادة على هذا أن يهود أوروبا وأمريكا ، وهم كما تعرف أغنى اليهود وأثراهم يزدرون أطفالنا . وأنا أقسم لك أنّ أطفالنا ليسوا سعداء هناك ! ولهذا فإنّك تراهم يصلون هناك بحقائب الأوهام ثمّ إنّهم بعد ذلك يدركون أنّه من العسير على الانسان أن يعيش بدون جذوره فيموتون حنينا وأسى وكآبة . ومنهم من لا يحسن التلفّظ ولو بكلمة واحدة من اللغة العبريّة ولا يعرف إلّا العربية أو البربرية . أنا شخصيا أعرف أنّهم ليسوا بسعداء هناك . والانسان لا يغادر بلده بهذه السهولة . الأرض تسكن الانسان ...

قل لي يا « موشي » هل بلغتك أخبار عن العنزة ؟

« موشي » :

لا بدّ أنّها قد طعنت في السنّ ، المسكينة ... منذ أيّام أبصرت العنكبوت الأزرق ولكنّني لم أتجاسر على مخاطبته في أيّ موضوع كان . ذلك أنّني أصبحت من أهل الاحتراز والحذر . في السابق كان عهد المجد ؛ قد كنت اليهوديّ الوحيد القادر على حلّ عقد الأذيات الناتجة عن الرّق والذي يقطع دابر السحر ، كنت قويا واثقا من نفسي كلّ الوثوق . كنت قويّا على حل عقدة العنّة . ولقد شاهدت من الرجال من ارتموا عند قدميّ والدموع تنهمر من أعينهم عساني أعيد لهم القوّة ... وأحيانا كنت أشعر بشيء من الاختناق من شدّة الاشفاق . لا أدري ما عساني أصنع : فوضعيّتي تجاه رجل يفوّض لك حياته وضعيّة ليست بالهيّنة ولا اليسيرة . وكان أكره شيء عندي هو جميع أولئك النسوة المسنّات اللاّئي كنّ يبغين أن يرقين أزواجهن إضرارا بهم لأجل خياناتهم لهنّ . أتتصوّر يا «محا» ! توفير العجز الجنسي ثمّ إبعاده بعد ذلك ! يالها من لعبة خطيرة ! وأنا أتساءل لم اشتهر اليهود في بلادنا هذه بكونهم من مهرة الرّقاة . ولكنّني شخصيا كنت يهوديّا من النوع الرديء . لم أكن متديّنا ومع ذلك لم أكن أثير ثائرة الشيطان بل كنت أفضّل صرفه . وأحيانا كان بعض الشيوخ من المسلمين هم الذين يستغلّون كيد الشيطان ويوكل إليّ أنا أمر طرد الأذى من الأجسام .. لا ، ليس لديّ أخبار عن العنزة . فأنا هنا بعيد عن كل شيء . وفي الوقت الحاضر قد أخذت في التفكير والتأمّل . أجل في التأمّل في موضوع الموت . أقضّي أوقاتي

أرمقه . فأراه يقترب منّي محمولا على كتف إحدى الصبيّات .
ولكنّي لا أخشاه . فما أخشاه هو البلى . أنظر مثلا إلى خالتي
« حنينة » (ياله من إسم هذا الذي اشتقّ من « الحنان »
وهي تعيش بمفردها منذ وفاة زوجها . وقد هاجر أولادها إلى بلاد
الكندا وبلاد البرازيل ولكنّها تبنّت طفلة مسلمة كانت تعيش
في مدينة القصدير الشمالية .) قلت إذن انظر إلى خالتي
« حنينة » فهي لم تعد تعرفني بشخصي كل مرّة . وقد دخلت
وخرجت في كلامها . واختلطت عليها جميع الأمور . وأمّا أنا
فقد عقدت العزم على ما يلي : عندما سيشرع جسمي في
الانهيار وعندما تستحيل ذكراي إلى ضرب من العصيدة ،
عندها سأذهب إلى الشجرة لأموت فيها . وإذا لم أجد مكانا في
الشجرة أذهب إلى مغارتي . لست أبتغي أن أموت بداء الوحدة
مثلما يموت البعض بداء السرطان . على الأقل في الشجرة هناك
جميع ذكرياتنا . هناك دائما أحد الصّبيان ، يتيم من اليتامى
ترسله لك الريح لكي يأخذ بيدك . وأمّا أولادي وبناتي فأنا لا
أكاد أراهم أبدا . أظن أنّهم يخجلون منّي . إنّهم يخشون
الجنون . ولهذا فقد قلت لهم يوما بأن الجنون ليس وراثيّا . على
أن ذلك ممّا يؤسف له حقّا ! لأنّهم هكذا يعيشون بلا شعر
بلا سخاء بلا حنان . هم يتعاطون الاتجار والصفقات .
ويتعاطون السرعة في سيّاراتهم على الطرقات . وفي يوم من الأيام
القادمة ستذهب منهم حياتهم فيموتون حذو الشمس . إنّه
لعمل مشين ! وعلى كل فلا تنسني أنت. وسنذهب ذات
مساء لمخاطبة البحر كما كنّا نفعل من قبل . أتذكر ؟ كنّا نصبح

ونولول إلى أن تلوح لنا عروس البحر . ياللجمال جمالها ويالتأثر تأثرنا إذذاك . أنبهر انبهارا فتقطع عنّي الأنفاس وتظل مشدوها فاغر الفم ولعابك متجمع في نواحي شفتيك . كانت لنا على الأقل تلك القدرة التي لا مثيل لها في العالم : أن نستحضر عرائس البحر ونرقص على الرمال حتّى مطلع الفجر . كنّا نعود إلى المدينة ثملين . فننام أيّاما وأيّاما لكي نحافظ على ذكرى تلك الليلة وصورها في نفوسنا . صدّقني يا « محا » فنحن بذكرياتنا في مقدورنا أن نستمرّ في الحياة فنعيش قرنا كاملا ونيفا ... ففينا زاد مخزون من الضحك من شأنه أن يغذي جيلا كاملا من المعتوهين . ولكن الناس اليوم لم يعودوا معتوهين . إنّهم مرضى .

« محا » :

إنّها بداية السقوط ، بداية الانحطاط ... إنّي أتقدّم بين جموع البشر كالغريب وإنّي أكره الاتزان في كل شيء لأنه لا يخلّف إلّا الخنوع والانقياد . لا جنون ينتظر من سطحيتهم . ذلك ما يسمّونه السعادة . وبعد هذا العمى الشامل ها نحن بدأنا نلمح النّور ونهاب النظر إلى الشمس وجها لوجه هذا ما آنتهينا إليه . وهناك آخرون أرادوا أن يصيروا عظماء ضخاما بشعين . ما هم إلّا فرسان لا بطش ولا علوّ همّة لهم .

والآن ، يا « موشي » ، أنا تاركك ومقبّل يديك أيّها الوليّ الصالح ! أتركك وأواصل مسيرتي في الطريق مفتوح العينين . أنا

ذاهب إلى البنك لمقابلة السيد المدير . ربّما أفادني بخبر عن الشجرة وعن ذاك الطفل الذي مات ولمّا تمت الكلمة على شفته .

كان المدير إنسانا مشغولا . جدّ مشغولا . إنسانا لا تراه العين . ذا يدين نظيفتين وذا جسم لطيف ولكن يستحيل الوصول الى أيّ منها . ولقد كان صغار موظّفي البنك يشكّون حتى في وجوده . لعلّه لم يكن إلّا ضربا من الشائعات. لعلّ مكتبه لم يكن سوى قاعة خالية يتصدّرها تمثال من شمع . وتكثر الشائعات وتتعدّد ...

نصب « محا » الحراسة ليلا نهارا . وذات صباح تحقّق من هويّته وهو ينزل من سيّارته إلى المكتب .

ـــ مولانا ! هل بلغتك بعض الأخبار عن ذلك الزنبور الذي لسع أباك ؟

ــ لا ولكن أبي قد مات .

ــ اتركني أصاحبك . لا بدّ أن أقصّ عليك قصصي وأعدك برعدة رائعة مثل تلك التي حدثت إبّان أزمة الجفاف الأخيرة . لقد كنت آنذاك شابا ذا عواطف ملتهبة ...

ــ ليس لي متّسع من الوقت .

ــ الوقت ، أنا أعطيكه .

لحظة من الصمت . أبتسامة ثمّ إشارة بالرأس . من مكتبه ، كان المدير يسرّح البصر الى البحر البعيد . حرّك إحدى الآلات فأخذت تحكي هدير الأمواج ثم قال :

ــ ما هي بغيتك ؟ أنا ليس لي دارهم .

ــ لا ، الدراهم احتفظ بها لاقتناء الذهب . ترى هل يتّفق لك أحيانا أن تذهب تحت الشجرة ؟

ــ أيّة شجرة ؟ لا ، وكيفما كان فأنا لا أخرج أبدا . وإذا خرجت فللذهاب إلى السّرك . كما أنّي أخرج للذّهاب إلى الحمّام الشعبي . أحبّ حرارته وأحبّ الغلمان الذين يقصدونه للعبث واللهو .

ــ شجرة آبائك وأجدادك . الشجرة التي أكلت أطفال هذا القرن . لو انتصبت تحت هذه الشجرة وأرهفت السمع مصغيا لسمعت توجّع أحد الأطفال وصرخات الألم تصدر منه . ربّما كان طفلي أنا ، أنا شخصيّا لم أعد أسمعه وهو ما يبعث فيّ القلق والحيرة أكثر من كلّ شيء . أمّا أنت فذو منزلة مرموقة ، أنت على قاب قوسين من السّماء أو أدنى وفي وسعك أن تتدخّل لكي يوقفوا هذه المجزرة .

ــ أيّة مجزرة ؟

ــ مجزرة تقتيل أولائك الأطفال الذين ولدوا ويولدون وعلى جبينهم نجمة

مرسومة . أنت على بيّنة من أنّهم يلقون عليهم القبض لأنهم لا يفكّرون مثل سائر الناس ولأنّهم أبرياء يقولون الحقّ دونما تحفّظ أو آحتياط . ولأنّهم ولدوا من الفوضى واختلال النظام .

ـــ اسمع و ع . أنا هنا لا أتعاطى السياسة . أنا مدير ، مدير سام . ولا آشتغال لي إلّا بما لا أراه : أعني الملايين والمليارات . ما عدا ذلك ليس له وجود عندي وأمّا ما حكيته من قصّة اختلال النظام والتهديم وقصّة النجوم المرسومة على الجباه . فأنا لا أعي ما الذي تعنيه بحديثك هذا .

ـــ إنّي أتحدّث عن تلك الأجسام المتأرجحة في الفضاء وفي الظلمات .

ـــ إذا كنت لا تريد الدّراهم فما الذي تريده إذن ؟

ـــ لا شيء . لا أريد شيئا . بل قل إنّي لا أريد شيئا ذا بال . فقط دماغك على طبق لكي أهبه لطيور الليل .

ـــ لقد جننت ...

ـــ نعم أنا وليّ صالح ومجنون . أمّا أنت فإنك لم تلامس الأرض قط .

ـــ اسمع يا « محا » . العالم مقسّم إلى أجزاء غير متساوية . فهناك من قدّر لهم أن يتعاطوا خدمة الأرض فيختلطوا بها ، وهناك من قدّر لهم أن يعيشوا في المجرّدات والبذخ . بالنسبة إليّ لا يوجد شيء ذو حقيقة وكيان . بل أنا أقضّي حياتي في مقارعة المجرّدات ، مثلي في ذلك كمثل « دون كيخوته » وهو يقارع طواحين الريح . أنا في غابة لا شجر بها . الشجر أنا الذي اخترعته . أنا أغرسه . أنا انقله من موضع إلى موضع فأركّزه حيث أرتضي . وكذلك الأمر فيما يتعلّق بالبشر حيث استعمل معهم نفس الطريقة . أنا أوقّع . نعم ، أنا لا شغل لي سوى أن أوقّع . خطّ مائل مشفوع بدائرة صغيرة في أقصى اليسار . وبهذه العلامة السحريّة في

استطاعتي أن أغلق معملا أو أعطّل إنتاج منجم من المناجم أو أن أصرف جماعة من العملة إلى أكواخهم مطرودين . إنّ نفوذي لا حدّ له . أنا هنا منعزل ، محاط بعدد من الأبواب والأثاث المتّخذ من الجلد . على أنّ هناك هذه النافذة والحمد لله إذ منها أنظر إلى الحياة بالمنظار المقرّب فأرى عملة الميناء يشحنون البواخر ويفرغون منها أطنانا من البضائع والسّلع فتطمئن نفسي لذلك لأنني لا أنام نوما هادئا في الليل . زوجتي تداعبني جنسيًا ولكنّي لا أنام نوما هادئا . إنّه الارهاق . فمن العسير أن يعيش الانسان مغلّفا بالريح وسط شيء من الأمن المصطنع . فأفقي ليس ببعيد ، بل هو يقف هنا وراء هذا الباب في طرف هذا الممرّ . إنّه رسم مزيّف محفوف بساحل طبيعي . طيور محشوّة تبنا تغاريدها مسجلة على الآلة . ولكن ترى أنّى ذهب بلد طفولتنا ؟ نفسي الآن بصدد الاشفاق . لا . لا ينبغي لي أن أنساق للضعف . ما رأيتك قط إلّا وأدخلت البلبلة والاضطراب على نفسي . ولكن قل لي بربّك لم أنا متعلّق بمودّتك ؟ فنحن لسنا من نفس الفئة . وأنت ، لم تجيئني فتوقظ هذا الحنين وهذه الشجون الأليمة ؟ أنت تزرع الشك في النفوس وتبعث فيها دوار البحر . حين أراك أشعر بنوبة من صفاء الذهن تنتابني . إنّه النفوذ . النفوذ الذي صيّرني مجنونا . ولكنّ جنوني ليس كجنونك . فجنونك أنت جنون جميل سليم . أمّا أنا فلقد أصبت بذلك المرض الأعضل الذي لا يتحدّث عنه النّاس : فأنا كالميت لا أتفاعل مع ما يحيط بي ، لا بالنسبة إلى الأشياء ، وإنّما بالنسبة إلى الحساسية . لم أعد أنعم ببهجة النفس وغبطة الروح . أنا رجل وحيد . لقد قال فيلسوفك ، إن الألم يعزل الانسان ، أمّا أنا فإنّ الألم يقذف بي نحو تكديس الثروات وفي أعماق الغثيان . النفوذ . إنّه يصيّر الأنسان مجنونا لقد برزت بظهري بثور حمراء . نفوذ المال هو الذي يتسبّب في هذه البثور

وفي هذا الصداع . وإذا آتفق لي النوم أحيانا أحلم بالابل فأرى إحدى الصحاري عامرة بالجمال وبالنوق . صحراء يغرق فيها الانسان فإذا الرّمال تأتيك مثل الأمواج لتلفّك لفّا فتختنق ولكنّك تبقى حيّا معلّقا وسط الرياح . إنّها لجهنّم . وكلما زدت في الارتقاء في سلّم الوظيفة زادت أمواج الرمال زحفا . وددت لو نزلت إلى مستوى الأرض من جديد فأكون إنسانا بين سائر الناس . لا بل أنا رجل سعيد . ولن تراني أبكي أبدا . فإنّ لي زادا من الاكسجين ومن الحبّ . في هذا البلد ، الأمر لا يخلو من شيئين : فإمّا أن تكون إلى اعلى وإمّا إلى أسفل سافلين . الأمر في منتهى البساطة . فعلى الانسان أن يسعى للمحافظة على منصبه فالخصال لا أهمّية لها . والمال والمنزلة الاجتماعية خصال كافية شافية لامراء فيها ولا جدال . أنا رجل أغدقت عليه نعمة الله . نفسي راضية مرضيّة لا رغبة لها في المزيد . فأنا صاحب أسرة وخدم وحشم . سترى بعينك ، فرغم أطمارك أنا مستضيفك لتناول طعام الغداء في المنزل . لكأنّني اصبحت إنسانا آخر . ولكن حذار ! لا أريد منك أي تعليق .

« الفيلا » محاطة بسور سميك ، ينتصب في مدخلها حارس يقظ يدخّن الحشيش في غياب سيّده مخاطبا عكازا ينتمي به إلى صفّ قدماء المحاربين بالجيش الفرنسي . ينتصب هنا كي يكون جزءا من السور . « يقردف » ليحيّي سيّده . وكلّما أغلق الرّتاج خيّل إليك أنّك قد غادرت البلاد فدخلت بلادا اخرى فيها ما فيها من تسلسل الصور والرسوم وتدفّق الأصباغ والألوان . فأنظر تر الخدم يتسارعون لكأنّهم بهائم مجروحة مكلومة . لا ينبسون ببنت شفة . الوضع هنا لا يمتّ بصلة للوضع بدار

سيّدنا ومولانا الشيخ حيث عبوديّة الخدم من الخشونة بمكان وحيث روح النظام المتوارث عن الآباء والأجداد يتغلبّ على روح الحساب الجاف الأنانيّ . هنا تسود روح الدقّة المطلقة والحسّ الرياضي . هنا قد بلغنا بعد حدّ علم « الميكانيكا » الرفيعة .

كان الصبيان يطلقون على هذه الفيلا لقب « سينما سكوب » لمساحتها الشاسعة وشكلها الواسع المحّدب . ومنهم من يسمّيها «تكنيكولور» ! لقد كان الصبيان ينظّمون دوريات في الأحياء الغربية ويطلقون أسماء يبتكرونها على ما فيها من ديار خارقة للمعهود . وعلى مقربة من منزل مدير البنك كان هناك منزل عجيب الهيئة هو عبارة عن فيلا في شكل كرة من زجاج الكرستال ، كرة ضخمة يصل بينها وبين مسبح مسخّن قنال جدرانه من بلّور . وكان الصبية يسمّونها « السيرك » لا يدرون من أي جهة يباشرونها ولا كيف يكتشفون خباياها .

ــ هل داخلك التعجب ؟

ــ لا ، بل أنا افكّر في ذلك الثعبان الذي يعانق الشمس وأتساءل ترى لم لم يأت ذلك الذي وعدنا بالدّوار ؟ بالموج فوق رؤوسنا والكوكب الجاثم على الصفَة ...

ــ لم كلّ هذا التشائم ؟

ــ لست يائسا وإنما هو صفاء الذّهن ووضوح الرؤية .

ــ أنا الآن سأخاطبك بكل ما أوتيت من صفاء الذهن . إنّ بلدنا مكتوب لها أن تمارس وأن تترك النّاس يمارسون الرشوة والارتشاء . وهو أمر مذموم من الناحية الأخلاقية . لكن الأخلاق لا تصنع الاقتصاد . أما الدين فهو يشجب الرشوة مثلما يحرّم السرقة والكذب الخ ... ولو كنّا مسلمين حقّا لأغلقنا جميع البنوك . فأنت ، إذا درّ لك المال مالا ، تكون قد وقعت في زلّة . دعنا إذن من الأخلاق والدين . ومن الناحية الانسانية لا بد من القيام بعمل ما. أنا رؤوف بالانسانية. بل وفي رأفتي تلك إفراط والحقّ يقال . فأنا أستخدم عددا كبيرا من الخدم وليس لي في الحقيقة حاجة إلى كلّ تلك العشيرة . ولنعد الى البنوك ، لنتصوّر أن جميع المسلمين الأغنياء منهم والفقراء ، يقرّرون سحب أموالهم. والله ليكوننّ ذلك أخطر ممّا لو نزلت علينا قنبلة ذريّة . إنّ مصيرنا لعلى قاب قوسين أو أدنى من الفاجعة على الدّوام . وتلك هي حياتنا اليوم . أن نتصرّف في حبال الفاجعة بدون أن نقع في حبائلها . أنا شخصيا أتكلم كلاما واضحا جليّا، كلاما علميّا. أما أنت فإنّك تعارضني بالشّعر. وفي ذلك محض الجبن والخذلان المبين . أنا أمقت رومانطقية رجال السياسة عندنا ، أولئك الذين يجرون دائما وراء حنين ما . إنّ الذي يعوز بلداننا في الحقيقة هو قليل من الصرامة فبسياسة القروض المتّبعة هذه لن يبقى لنا عمّا قريب قطع أرض لنا نحن . انظر إلى كلّ هذا العدد من العمّال المهاجرين الذين هم بصدد اقتناء قطع من الأرض ... أنا أعرفهم حقّ المعرفة . فبنكنا هو الذي يباشر ملفّاتهم وقضاياهم . وليسوا على ما يقال من البؤس والحرمان بل هم بالفقر يتظاهرون . وعمّا قريب سنرى الفلّاح الصغير المجاور لنا يبتني له فيلا هو الآخر ! فيكون له منزل ربّما كذلك ــ ولم لا ــ بعض الخدم . إنّك تحدّثني عن الديمقراطيّة. الديمقراطيّة ــ يا سيدي ــ إنما هي فكرة مستوردة

مثل الاشتراكية . كل ذلك هو من باب الاستيراد ، الاستيراد الحقيّ الذي لا تراه العين ! ولنتصوّر أننا غدا نترك الديمقراطيّة تعمل عملها في البلاد فإنّ الناس سيصوّتون لفائدة الأكّارين ، أولائك المساكين الذين لا يحسنون لا القراءة ولا الكتابة . هل تتصوّر أنت مجلس النوّاب وقد عمره جماعة من الأكّارين والفلاحين ؟ ... ترى فيم سيتناقشون ؟ في البقر والماعز . شيء يبعث في نفسي الغثيان . لا بّد من وجود نظام قويّ حتّى يتمّ احترام ما في المجتمع من انقسام طبيعي بين مختلف الطبقات. أمّا عن الرشوة فما هي الا طريقة من الطرق لانقاذ اقتصادنا . فانت تدفع لموظف صغير أجرا بخسا وغلاء المعيشة مشطّ . وبذلك فإنّك تدفع به إلى أن يتدارك الأمر بأن يسترجع بقيّة ما يحتاج إليه من دراهم من جيوب من يتمتّع بالوسائل الماليّة الكافية . وفي الواقع فإنّ هذا ليس إلّا اقتصادا موازيا للاقتصاد الرسميّ ولا ضرر في ذلك بتاتا وإنّما هو نظام استرجاع واسترداد . والانسان يتعوّد عليه بسهولة . فإن قلت : مثل البلد الذي تمم فيه الرشوة والارتشاء كمثل الثمرة تستبقي دودها في لبّها ، قلت أجل ، إنّ بلادنا لتغل دودا ، الصغير منه والكبير ، بدود ذي مرّة ، بدود ذي ألوان ... ويوم يصبح عدد الدّود الخطير كافيا فإنّ الثمرة ستتشدّخ على الحجارة . وعلينا أن نعرف كيف تأكل كتف الحياة حتى يأتي ذلك الزمن . علينا أن نعيش في انسجام مع روح العصر الذي نحن فيه . والذي يبهرني هو ما اسمعه منذعشرين سنة من أنّنا سائرون الى الكارثة ، إلى الدّمار ، إلى الموت . أنت تعتقد أن الأثرياء مستمرّون في الاثراء والفقراء في الاعواز ؟ لا ، أنت لا تفقه من واقع البلاد العميق شيئا . فالذي عندنا في حقيقة الأمر هو أن الناس مستمرّون في الحلم بنفس الأحلام وبالتخاطب بنفس الخطابات ، هل فهمتني الآن ؟ أنا أيضا صافي الذهن والرؤية .

ـــ ما في قلبي لمثل هذه الرؤية إلّا الصدّ والصمم . ما صبري على هذا الحقد المتحامل على المعوزين إلّا غصّة . أستمع إليك فيذبل فيّ كلّ شيء . ما أنا بالمعتوه ولا بالحكيم . ما أنا إلا حطام سفينة قابع وراء الجدار العلّي ووراء العار . كنت مسافرا الى الزمن الغابر ، فإذا على الطريق حمار : ذبيحة المتخنّثين ؛ الموت يعزف على آلة البيانو . لقد وليت هاربا .
سأشقّ طريقي عبر الكلمات وأترك لكم الحكم وحدكم .

واستأنف « محا » الطريق ، وجهته البشر والعصر. فرأى « حرّودة » خارجة من بين الأعشاب . قالت له : « واصل طريقك ، إنّ المدينة والبلاد تنتظرانك وإلى كلامك هذا الزمان مشتاق ، فلا تبخلنّ به . وما ضرّنا لو أصبح الخجل لا ترتسم علائمه على الوجوه ! فقد أصبح الحياء غير دارج. اذهب الى الساحة الكبرى تجد رجالا ونساء وأطفالا وبهائم معدودات في انتظارك : منذ أن ذهبت فولجت متاهات الأثرياء ونحن ننتظر عودتك ونرجو غضبك ونعدّ العدّة للثأر والانتقام . واعلم أنّ الطفل الذي اختفى كان من أطفالي أنا أيضا ... »

أنا اليوم أحدّثكم عن البحر . حتّى البحر عليه مسحة من الزيف هذا الصّباح . كل شيء متجمّد . كل شيء عاطل لا حراك به في حساباتكم وتمريناتكم على المسرحية قبل عرضها على الجمهور . شأن الصلاة في ذلك شأن الكذب ، وشأن الأمل شأن القضاء المحتوم . يالها من لوحة خشبيّة بدون عطر ! لقد تعطّل كلّ شيء عن الحركة منذ عهد بعيد وأنتم لا تعلمون . ولولا الأطفال وبعض الشيوخ المعتوهين من شدّة صفاء الذهن لأغمي على البلاد فإذا هي في احتضار . في احتضار ممدود . مثل الجسم ينتّج . لقد فرّ المتطيّبون المشعوذون وتعطّل كل شيء ماعدا دمكم ذاك الذي يواصل دورته في غباوة . إنّه الغثيان الأكبر . لم أعد أعرف أحدا بشخصه . لقد تجمّد كل شيء كتجمّد يقينيّاتكم واحتيالاتكم الخسيسة لقضاء مآربكم . لقد ولدتم وأفواهكم معلقّة على يقينيّاتكم . اللّهم إلّا الثعبان فقد ولد ملتفّا حول الكوكب الأعظم . لقد ولد من تلك التّينة المنفصلة بمفعول كل هذا العسل وكلّ هذا الدّم. آه! لم تعودوا لا إخواني ولا

أشباهي . اليوم بفضلكم عرفت الوحدة . يالها من تعاسة تعاستكم ! أنتم الذين لا يزعجكم شيء آه ! نعم . الموت ، شبح الموت . أن أموت وأن تموت قضيّة مطروحة كم مرّة وأنتم تتظاهرون بالاستمرار في الحياة . وداعا أيّها الرفاق ! الجمل وحده هو الذي اهتدى إلى تلقينكم كراهيّة الضحالة ولكن ما أعظم ما أبديتم من احتقار وامتهان . وما أكثر عبارات الازدراء والتهكّم اللاذع المبتذل ! صديقي الجمل سمع كلّ شيء . فظلّ صامتا . بكى واختفى . خفّف الله عنك حمل المستقبل أيّها الرفيق ! وقرّب السماء من حبّك وجعل الدّموع دموع الفجر والاصباح . إنّ الحنين لحجاب . إنه لقناع للنسيان بل وسدّ يقام وسط عتيق الحجارة . بقي لكم اللّيل مستنقعا آسنا فيه تتعفّنون أجساما دسمة شحيمة ، أجساما متدلّية استرخاء . ولكن ليس للّيل من بطن يدفىء به أيديكم . وإنّما له أفخاخ وشهقات عالية مجعولة لأنانيتكم ولحساباتكم . تنامون متلفّفين على ممتلكاتكم ، على جميع ثروتكم باستثناء السماء . وفي الصّباح ترتفع من أجسامكم المكدودة المتجمّدة رائحة البساطة والابتذال المجهود . هي موضع خجلكم الخفيّ . تلك هي استحالة فقدان الذّاكرة والنسيان . وتلك هي استحالة الثورة ... الثورة ؟ هل قلتها ؟

أجل! تحدّثت عن الثورة. وما فتئت تسبّ الناس الشرفاء النزهاء وتشتم. ترى ما الذي تريد؟ قلها بصراحة ولا تتوار خلف حجاب الكلمات. أتريد العودة بجميع البشر الى الفوضى والاختلاط ؟ أم تريد موتنا وذهابنا كلّيا على بكرة أبينا ؟ ألم يكفك ذلك المليون من الشهداء ؟ من أجّرك ؟ من بعث بك إلينا ؟ لصالح من تشتغل ؟ من فضلك لا تعد علينا ما قصصته لنا بعد

من حكاياتك عن غول وغولة تحابّا فماتا من الحبّ والهيام ...

الكلمات . بالكلمات أتّخذ لنفسي سياجا ولكنّه رقيق شفّاف أيّما شفافية إذ الكلمات خطيرة إذا انطلقت من أعماق هوّة سحيقة ، من تحت الأرض ، من وراء الحجارة والحيطان . هل عرفت رقّة دموع الأطفال؟ هل عرفت رقّة الفتيات ينظرن إلى الربيع في المرآة ؟ أنا أحبُّ نهود الفتيات ... لا تكاد يدي تلامسها ملامسة عابرة حتى تنغلق عيناي على أبديّة نظرة من النظرات وعلى جرأة من الجرآت وعلى حنان من كبريات عواطف الحنان . ترى هل عرفت رقّة الثدي بين شفتي الطفل ؟

آه! إنّه الموت. كل متحرّك يشوّش عليكم راحتكم . كل حيّ يبثّ الفزع في نفوسكم . إنّ الموت لموجود في كل هذا . الموت . قال أحد الفلاسفة «إنّ الموت هو أقوى أضداد تصوّر المحال». أمّا فيما يخصّني فأنا على الأقلّ أعرف أنّ الموت بستان . البغضاء والعنف أنا أدرجهما في كيس بساطتكم ومبتذلاتكم . فالابتذال منحاز إلى جانب الموت لأنّه خضوع واستسلام لنظام الأشياء السائدة ولنظام البشر وهو يعطّل سير الثّورة ... هل فهمت ؟ ليس لي لغز أقترحه عليك . وأنت لا ترى الأمواج تتصاعد ولا الرياح تقبل ولن تقوى على الرقص عند لفظك النفس الأخير والحال أنّه لا مناص لنا من أن نموت راقصين ...

ولهذا تهيّأ واستعدّ للرّقص ...

إنّ عبارات سخريتي اللّاذعة لم تقضّ على الطفل مضجعه قطّ .
عبارات سخريتي اللاذعة أنا أقرأها على السماء وعلى وجوهكم . إنّها منقوشة على الحجارة . ألا فامحوا تلك العفونات المغشّية لتفكيركم ولسوف تضحكون حينئذ معي من أنفسنا وذواتنا . أنا لست مولعا الّا بتلك الغابة التي تقول الحقّ . ولكن الغابة تتقدّم إلى الأمام . وأنا أحبّ البحر عندما يجعل من معتقداتكم مهازل عند النّاس . وأحبّ الأطفال الذين يمنعونكم من النّوم . أولئك الصبيان الذين احتلّوا المدينة وبعثوا في أنفسكم الهلواس . وتطيب نفسي عندما تتمتم الأرض بغضبها وغيظها وعندما تردّ عليّ السماء . أحبّ الفجر والغروب . أحبّ الصّبائح المبقّعة بالظلال .

نحو النّاس الذين تكسّرت بهم السّفينة أنا ذاهب . إلى صمت الحجارة أنا منزو . نحو الرّمال أنا ملتفت لأنّ طريقي مازالت طويلة . ومازال عندي من الفخاخ الخطيرة ما عليّ أن أغطّيه . عندي ذكرى منسيّة وبلد موجود عند منتهى كلماتي . والريح التي تدفعني أقوى من كلماتي وسأعود بعد ذلك مصحوبا بأعاصير جديدة . فكونوا حاضرين لايقافها عند حدّها .

كلّ شيء هنا يسير بسرعة ، بسرعة كبيرة ، أسرع من الريح ، أسرع من أفكار أمّي ولا شيء يتحرّك . يقال إنّ كلّ شيء سيتغير . إنّهم يجرون في جميع أنحاء المدينة . وحتى في الأرياف هم يجرون فلقد رأيت من الفلّاحين من يجري وراء بعض الآلات . البلاد قاطبة تتعاطى السرعة . لكن لا شيء سوى السرعة، لا شيء سوى الريح، الريح الباردة، الحارة، الهوجاء وأنا أستحق كل هذه التعاسة ، أنا الذي أنظر وفي أعماق نفسي بحيرة تنعكس فيها صغار النجوم . أنا أنظر فأعرف . إنّ النّاس عندنا لا يتقدّمون ، يحركون أرجلهم بدون أن يتقدّموا . إنّهم يخطون خطوا ويعدون عدوا وكأنهم في أماكنهم ثابتون . كلا إنّهم لا يعلمون . آه لو استمعوا إلّي على الأقل لا دّخروا شيئا من طاقتهم وضحكهم . أنظر هناك. هل رأيت ذلك الصبيّ ؟ إنّه شخصيا يعرف لم هو يجري . فهو يركب قصبة ويتعاطى السرعة . وأنا كذلك أجري ولكنّني كثيرا ما أتوقف . وتلك نعمة من نعم الله والحق يقال . وإلّا فمن يا ترى من شأنه أن يحرس تراب هذا البلد ؟

ومن يا ترى يجرؤ على قول الحق ؟ أنا رجل معتوه . وهم يعتقدون ذلك .
أقول الحمد لله ! لأنني لو لم أكن معتوها — أو مظنونا فيه العته —
لحبسوني أو لداسوني بأرجلهم في ساحة السوق منذ عهد بعيد . وقد
حدث لي مرّة — كان ذلك قبل الاستقلال — أن اطلقتها صرخة مولولة
ضدّ تواجد الفرنسيين في بلادنا . لم يكن ذلك بالسوق المركزيّة بل بالمدينة
العربيّة العتيقة الملقّبة بالقصبة (انظر كيف اختلطت عليّ جميع الأشياء !)
كنت معتوها ولكن كان يباح لي أن أقول كلّ شيء يخطر على بالي . أن
أقول كلّ شيء ! ياله من برنامج ! وهناك ضابط فرنسيّ كان حذرا نوعا ما
من أمري مرتابا في عتهي وجنوني . وكان يتعامل مع عين من عيون الحيّ .
وبالمناسبة فقد أصبح هذا الجاسوس اليوم معتمدا أو مديرا ، لا أذكر
بالضبط . نعم لقد همس هذا الجاسوس في أذن ذاك الفرنسيّ بأنّني كنت
اتظاهر بالعته . وبأنّ لكلامي مفاتيح . كلام مرموز . تصوّروا : مرموزا !
فاقتادوني، وأظنّ أنّهم جلدوني مائة وأربعين جلدة . لقد أحصيتها إحصاء .
وهو أمر طبيعي إذ لا بدّ من مجازاة الضربة بأختها . وكيفما كان فالجنون
أصبح لا ينطلي عليهم . آه ! لقد وجدت . عاودتني الذكرى : فجاسوسنا
هو المكلّف اليوم بتسليم جوازات السفر للاخوان المهاجرين إلى هنالك .
وتلك هي الحياة ! فالبحر يمتزج بالرّمل وينجب كائنا ممسوخا . والممسوخ
عبارة عن حجرة ضخمة جدّا تتدحرج عبر الزّمان . ذلك ما كان الجمّال
يقوله . كان يقول للممسوخين : « ألا سارعوا سارعوا تجدوا عند منتهى
الطريق حمارا ، حمارا لا يخطو بسرعة ولكنّه سيقودكم إلى جهنم » . وفي
إمكاني أن أقصّ عليكم ذات يوم قصّة الفرنسيس في بلادنا . ولكن لن
أقصّها عليكم اليوم بالذّات . إذ ينبغي لذلك أن يمرّ بعض الوقت
وخصوصا أن تخمد العاصفة . والحال أنّك تنظر الآن إلى السماء فتراها

مثقلة بالضباب وبالملل والكلل . وأنا أعرف أسباب ذلك . أنا أثرثر وأثرثر . ينبغي أن أكفّ عن ذلك . ولكنّي لا أريد أن تخاط شفتاي . أوه ! أنا قادر على الاهتداء إلى إحباط جميع المؤامرات . إذ كلّ عمل في بلادنا حبيكة لا ترى حبائلها . القضية معقّدة . القضيّة خطيرة . الوضع خطير كما يقولون . لكنّنا لا نشاهد ذلك ولا نشعر به . وشرط ملاحظته وإدراكه هو أن يكون الأنسان أجنبيًا قادما من الهند أو من أمريكا الهنود الحمر . ولهذا فإنّي أقترح أن يدعى مرّة كلّ سنة أحد هنود أمريكا لأداء زيارة إلى بلادنا وعند ذلك يقول لنا ما نحن والى ابن نحن سائرون وعلى أيّة كارثة نحن متهافتون ... إنّ كلام الهنديّ لكلام مقدّس كقداسة أرضه وقداسة تاريخه . وكلمته مصنوعة من حقائق مرّة . هنا لا أحد يفكّر في الهنود ومع ذلك فبيننا وبينهم اشتراك في شيء : ألا وهو ذاك الجرح في ركبنا : أمّا أنا فإنّي أحبّ الهنود . ولي أخ هنديّ له مائة وثلاث واربعون سنة من العمر وخمس من الشموس في أحد كفّيه . قابلته لأوّل مرّة عندما حشرنا الجنود الامريكيون في أحد المحتشدات الخاصّة بالهنود . وكان لي إذذاك مائة سنة وبضعة أشهر قمرية وكان بصري قد ضعف ولكني مع ذلك اكتشفت في جاري أخا لي . لقد ولدتنا حجر واحدة ألا وهي الأرض المقدّسة . وكنّا نتقاسم نفس الرغيف وكان التاريخ قد عيّن لنا نفس الكفن : هو عبارة عن أوراق واسعة من شجرة مجهولة . وكانت من الاتساع بحيث نتّخذها غطاء لنا في الليل . كان ذلك عهدا اخترقه الدم والودّ . وإذ ضيق علينا الحبس في طيّ النسيان فقد كنّا نبعث مع كل طلوع الشمس بعثا جديدا . والآن استمعوا معي إلى هذه التسبيحات للأرض التي اعتاد ترتيلها إخواني من شعوب « السّيوكس » :

« ألا أيتها الأرض المقدّسة التي منها خرجنا ، أنت التواضع مع أنّك لكلّ شيء غذاء . نحن لقداستك عالمون ، نحن بالقرابة بيننا وبينك عالمون . جدّتاه ! أمّاه ! أنت الأرض الخصبة المنجبة إنّ لك موضعا في هذا الكالومي (1) . أمّاه ! إنّنا نتمنّى بكل جوارحنا أن تتقدّم أمّتك في درب الحياة مجابهة للرّياح الهوجاء ! ولِمَش فوقك بخطى ثابتة ! وألّا نرتبك في خطانا ! إنّنا وجميع ما يتحرّك عليك نرسل أصواتنا إلى « الروح الأكبر » ! أعيننا ! إننا كلّنا نصيح جميعا مثل الرجل الواحد : « أعينينا ! »

ولقد ضربت في الأرض وبكيت . كنت وحدي ولكن شعبا بأكمله كان معي . كان صدري مفعما بدفء شعبي . مشيت طويلا وأنا أشعر بهذا الشعب يتقدّم معي كأنّه روضة كأنّه غمام . لعلّني كنت حالما . لعلّني مشيت على أرض آبائي وأجدادي عاري القدمين مجنون الجسد . ولقد وهبت جسدي للجروح ، جروح الزمان ، جروح المنفى والتغريب . ولقد انغلقت غضون جسمي على كوكب هامد وانغلقت يداي على الأرض الأمغر لونها . وها أنذا أسمع إلى حدّ الآن صوت ذلك الصبيّ من حيّ Rapid City وهو يقول : غدا قد تصيبك رصاصة . وقد يلقون عليك القبض هذا المساء بل وقد يكبّلونك بالأغلال حتى في يومنا هذا . ليس لك أنت القيام بالخيار والخيار الوحيد الذي لك هو أن تحبّ

(1) الكالومي (Calumet) — كلمة تدلّ على غليون طويل الأنبوب يدخّنه الهنود بأمريكا الشمالية عندما يجتمعون للتصالح وإقرار السلام بعد القتال .

أولا تحب » . أن أحبّ أو ألّا أحبّ . لقدْ أحببت آمرأة فهجرتني ولقد أحببت الأرض فاستبقتني .

أحببتها حبّا من جنس آخر. أن أحبّ . ولكنكّم لستم أهلا للحبّ . أنتم الذين لا تحبّون إلا المظاهر الكذّابة . الذين لا تحبّون إلّا المال والذهب . وأنا أضحك من لياليكم الخالية من الحبّ . إنّي أصرخ وأولول . ألا فاخرجوا من فخاخكم وهلمّوا لتدركوا أطفالكم ذوي النفوس المكلومة وراء الحيطان . اصعدوا من آباركم وآخرجوا البغضاء من قبور صدوركم . لقد آن الأوان للكفّ عن التضرّعات وقطع خيط الأغاني والأناشيد ... ولكن لم انقطعتم عن الأستماع إليّ ؟... ولم لا يقف منكم أحد ؟ تعالوا اقتربوا منّي فإنّ لي قصصا أخرى اقصّها عليكم ... قصصا جميلة مرعبة ... لا تخافوا ! فأنا لن أنساق إلى قطع نومكم عليكم ، لن أنساق إلى نهب منازلكم ولا إلى اختطاف أطفالكم . لن أنساق إلى إيقاظ خدمكم ... لا تخافوا فليس عندي ما أهبكم إيّاه سوى بعض الألفاظ ، سوى كلمة ، نشيد ... ليس لي من السلاح شيء ولا في نفسي من البغضاء ، والكراهية لأصابيحكم الشاحبة ولياليكم الخاوية شيء.

كان « محا » مسترسلا في الصراخ والولولة في ساحة المدينة الكبرى إذ أقبلت سيارة إسعاف لالقاء القبض عليه فانبرى رجلان بلباس أبيض وأوثقا يديه برباط ولفّاه في لحاف أبيض ولم يبد « محا » مقاومة بيد أنه واصل كلامه حتى أخذ صوته في الابتعاد شيئا فشيئا قبل أن يخفت تماما .

زنزانة عارية من كل شيء . شبّاك صغير بالسّقف . كانت الحجارة رطبة . وشعر «محا» بالبرد . كان قد تكوّر على نفسه وهو متكىء إلى الجدار ضاغط نفسه إليه وعيناه مفتوحتان . وكانت شفتاه تكادان لا تتحركان .

أمّاه ! يا أمّتاه ! لقد قلتها لي والله ! لا يخرج الانسان من الحمّام وهو على الحالة التي دخله فيها ... كنت تقولين لي : مهما ارتفعت عيون الناس فإنّ السماء تبقى فوق ذلك ... السماء فوق الكلمة ، كلمتي ؛ العين فوق اليد ويد السّماء فوق الأرض ... أنا يا أمّاه لست تلك النجاسة التي تتسلل بين اللحم والظفر ... وما أنا إلّا يتيم كلمته جاءت بالمطر في قلب الصيف ... وما الذي حصل لي إذن ؟ لقد عشت وحيدا ولمدّة طويلة في الوديان والسّهول وكانت كلمتي ترتدّ إليّ محوّرة مجمّلة . جعلتها أنشودة

المسافرين ... أنا يا أمّاه على بيّنة من أنّ ألحفة السماء ستتمزّق وأعرف كذلك أنّها ستتذمّر لذلك وتنتحب ... في قبورها . أتذكرين ؟ تلك الروضة المعلّقة بنظرنا وذلك الرجل الملتهم أطفاله ... لقد تأخّر الربيع عن أوانه . كنت أترقّبه في الحقول وأنا على ظهرك . أمّاه ! لقد حملتني في بطنك . لقد حملتني على ظهرك . لقد أعطيتني اللبن والدّرر لقد اعطيتني الكلام والماء . أمّاه ! مالم أغادر جسمك لم أعرف اللوعة ولا عرفت الأسى . لقد انصرفت مع الهنديّ والشجرة . لقد دللتني على الطريق ثمّ لمت في خلود أبديّ ينبجس من الأرض مثل عين الماء . وهاأنذا في هذه اللحظة وظهري إلى الجدار أدفع بنفسي في صلب الحجارة . إنّي أشعر بالبرد . اليد الواحدة لا قدرة لها وحدها على التصفيق والنجمة الواحدة لا تكفي للصّيف ؛ والشجرة الواحدة إذا اقتلعت معناها الأرض تجرح والماء يحوّل مجراه لصالح ذاك الرجل ذي الشأن ، ذي الحول والطول ، ذي الشحم . والدّسم ، الخرع المتعفّن ... إن هذا الطفل لصغير الحجم جدّا . التقمه الأسد في لقمة واحدة . لا ، إنّه ليس أصغر من أن يمتلىء به فم ذلك السّبع . لقد نسيت ما لقّنت من الشفقة وتركت الاشفاق . لقد عدوت في الحقول ولا قيت عددا من المرايا . كنت تقولين لي : ما تربحه في التّين تخسره في الحساء ... والنّهار المغلّف بالرّماد ... والليل المطويّ في دقيق الموت . أمّاه ! يا أمّاه ! لم هذا الجسم المدار نحو الحيطان الرّطبة ؟ ولم هذا النّهر الذي أضاع جداوله ولم هذه الأرض المعوزة يعوزها الحبّ ؟ لقد تهت من سطح الى سطح مثل الاشاعة . لقد فقدت رجلاي القدرة على الرّقص . القضية الآن هي أن نعيد صبغ كلّ شيء من جديد ، أن نصبغ الكلمات والبرق . أن نستأنف كلّ شيء في حياة جديدة وحقل بكر لم يحرث وطفولة سعيدة . أنا أخشى أن تسقط دمعة ... تكون زائدة على

اللآزم لأنه ليس لي سواك كي أذرفها وأنت لا تحبّين الدموع . ستكون درّة بل ألماسة مخصّصة لخطيبة الغروب ، ليدي الموسيقار الوحيد الرقيقتين ... أنا أضحك من نفسي . أنا أضحك مع نفسي . أنا أدمدم كالزوبعة في هذه الزنزانة التي لن تصمد في وجه العنزة ... إنّي لأسمع صوت أجراس بهائمي ... إنّي لأسمع ضحكات الصبيان . إنّي لأسمع صوت « حرودة » الساخر . دمعة ، لا ، بل درّة مجعولة لمطلع الفجر ، للحيطان التي تنفتح ... مجعولة لعينيك يا أمّاه ! وأنت يا أبت ! ترى أين أنت في الوقت الرّاهن ؟ أنت الذي أحببت النظام والسموّ ، ترى أين أنت ؟ لم أشتق إليك قطّ . وإن أنا تحدّثت عنك اليوم فذلك لأن الحجارة قد سألتني . فذلك لأنّ السّماء مغيّمة شديدة التّعتيم وددت معها أن أتيه في ذكراك . في فكرك كان هناك شقّ . وهكذا فقدت شيئا فشيئا رشدك . لم تحبّ في حياتك شيئا قطّ . لا نساءك ولا أطفالك . لقد كنت السيّد ، كنت الأب الشيخ الذي يركب الحجر وينظر إلى مكان غير الذي هو فيه . أنت لم تسمّ أمّي قطّ . إذ لم يكن لها في نظرك أيّ اسم . ما هي الّا الزوجة الخادمة والزنجية السوداء . ولقد أخفيتني في كيس من قوالب السكّر . ووضعتني في صندوق من الورق المقوّى . ونسيتني بجانب العين فهدهدني خرير مائها . إنّها الفكرة الوحيدة بل الغلطة الوحيدة : ألا وهي الماء . فالعين هي التي غذّتني . وهي التي ربّتني . والعين هي التي أحبتني . وأمّا الزمن فترى ما أهميّته ! أطفالك يا أبتاه لقد أفرطت في حبّهم فأسأت حبّهم . فما هم إلّا مخنوقون من حبّك الأحمق . وأمّي لم تكن ذات وجود . أمّي تلك الزوجة الثانوية تلك الأمة ، تلك الطفلة الصغيرة في فراشك . آه ! وا ألماه ! إنّ جلدي ليتمدّد للنسيان . ولكن ترى لم تعاودني ذكرى هذا الجرح ؟ ومع هذا فقد دفنتها ومحوتها بل وضحكت منها . وها

أنذا يخونني الضحك فجأة . أيا « محا » ! هل ستترك نفسك تنساق إلى التأثر الآن ؟ فتستسلم بدون مقاومة لمبهمات ذكرى من الذكريات ؟ أنت قويّ عتيد رقيق الحسّ لطيف التفكير . فاضحك اذن وأطلقها قهقهة عالية ، اضحك هنا وسط جملة من جمل كلامك ، وسط هذه الزنزانة حيث كل حجرة كدس من الألفاظ والصور . اذهب ، « محا » ، اذهب ، مستقبلا مصيرك ولا تقف على عتبة هذا الباب . مع هذا فأنت لم تسترجع هذه الذكرى إلى خيالك قطّ ! استمع إلى ما يقوله أخوك الفيلسوف :

« ينبغي لك أن تعود إلى الجمهور الصاخب :
فبين الجمهور يصبح المرء أملس أسيل . صلبا
الوحدة تبلي وتعفّن
الوحدة تضلّ وتفسد » .

لقد مللت نفسي . وها أنذا أعود إلى كلامي وأنسى البرد الذي أشعر

طوال رحلتي كلّها لم أتحدّث عنك يا أبت . كنت غائبا . كنت في مكان آخر ، منعزلا في متاهي . واليوم وقد انقبض جسمي حتّى أصبح جسيّما رقيقا هشّا ، ها أنت ذا ترجع .

لا ، فالباب سينفتح على شتاء آخر .

على مقاطع كلمات النّور
وضعت يديّ
كان ذلك قفصا مجعولا لعصفور ممزّق إلى أربع
مزّقه الزمان.
كان ذلك كلمة نهمة لا تشبع لا ترتوي
إنّي أعدّ الأيام
أنا الذي لم أكن أعدّ إلّا القرون والأشجار في غابة السفن لأجل
الحنين
التماسا لقليل من الحبّ لهذا الشعب المنتشي بالغياب حيث ينزل الطلّ
ببطء على سطح أرض صمّاء على عشب نادر
قلت شعب
كان عليّ أن أشفع ذلك بقولي : فخور كريم
الكهف إنّما كان خرافة

الشجرة التي أسكنها إنّما هي ملجأ
حكاية قديمة اختلقتها اختلاقا
لكنّني
لم أكذب
لقد تنقّلت المرآة منغلقة على كل هذا العدد الكبير من الصور .
مضطربة بكل هذا العدد الكبير من الأحداث والأصوات
تخترق البلاد
مثل الأجنبيّ الملثم
مثل صاحب القافلة هجرته إبله
طلّقته زوجاته أنكره أبناؤه
لا
كنت أسير من سهل إلى واد
من مدينة إلى قرية
ولقد اخترقت منازل يسكنها أسياد ومنازل يملكها شيوخ موال
مثل السّهم الذي وهبه لي أخي الهنديّ .
ولكن ها هو الحلم يسقط
في أحد الجداول
فانتابتني رجفة برأسي وبقلبي
أنا الجدول الذي أصبح لا يعرف منبعه
أنا الكلمة التي أصبحت لا تعرف من أين جاءت
أنا الحلم الذي يخفت مع تهافت الليل
ومازلت متماديا في حبّ الفجر
بكلماته التي لا ينيرها الحلم المتأخّر إلّا قليلا

، وينحني النخيل عليّ عند مروري
بينما أنا عار
مجرّد من جملي
مقتلع من ضحكي
وأنا أنبش فأخرج الأسنان المصفرّة
وأخاطب جمجمة تتحدّاني ساخرة
أصعد على النصب التذكاري فأدرك السّحب
وأرجو أن أمدّ يدي فآخذ بيد طفلي الذي قذفوه في السرداب .

ولقد تعطّل احتراق البلاد
لأن الشعراء لا يتقنون الكذب والبهتان
وبدون حقد سأنطلق نحو تلك الجثث المدفونة بيديّ هاتين المستعرتين
العنيدتين في بصيص الصّباح
لأنني لن أرى زرقة السماء من جديد أبدا .
على الحجارة الرطبة يصدم رأسي فيدخّن ويدخّن
حالما أقفز بكلتا رجليّ في ظلام الليل المنسكب
على تحبّب هذا الحائط الذي به شق يطلع منه النظر
على البحر .

ومن أعماق النّسيان أرسل أبو « محا » هذه الرسالة :

« أنت في الوقت الرّاهن موجود بهذه الزنزانة . مجنون وسط الحجارة الدائرة بك . لقد نسيت ما قال الله في كتابه من وجوب طاعتك واحترامك لأبيك : فلا ترفعنّ صوتك وغض من طرفك عندما تخاطبه . لقد استرجعت منك بركتي باكرا وذلك هو الذي جعلك اليوم قابعا بين هذه الجدران غارقا في ظلمات الجنون والاختبال . أيا « محا » من اعماق الليل البهيم، من طرف حياتي ومن الصخور النّاتية التي تخلّى عنّي القدر عليها أقول لك : ثب إلى رشدك ، عد إلى النظام ، عد إلى الحياة وإلى النّور ! وسيكون الله في عونك إن أنت رجعت الى جميع مساجد المدينة تصلّي فيها . وسيستمع الرسول الى ندائك فيمدّ يده إليك ويغفر لك . لقد أردت لنفسك يا «محا» ان تكون مقيمة للعدل باسم شعب بأكمله . ولكن أنت لم ينتخبك احد لذلك ولا وضعك احد في هذه الطريق طريق البغضاء والوحشية . فكن مواطنا متواضعا وعش حياتك ولا ترفع الحجارة

القديمة العتيقة . فلقد وضعت على أرض حبلى حامل بما شاء الله من التعاسة والشقاء . إنّها تغطّي ركاما من الجماجم ، إنّها تخفي مناجم كاملة من الأفاعي والعقارب . لم لا تدير وجهك صوب السعادة المطمئنّة التي ينعم بها أولئك الذين وضعوا حياتهم بين يدي الله . أنت تريد ان تترفع حتى تكون فوق النّاس ، تريد ان تكون مخالفا لهم بجنونك ولكن جنونك سيؤدّي بك الى الخسران المبين . بل قل إنّك قد وقعت بعد في الخسران المبين . ولن أكون إلى جانبك في جهنّم . ولكن بالنسبة إليك فإنّ جهنّم قد بدأت بعد . انا أشاهدك في هذه النار المتلظّية ومع ذلك فأنت تضحك . يا لك من ابن عاقّ ! إنّي تاركك للهيبك وضحكك ... »

« محا » متروك ؟ لا . فقد أقبلت بعض الأيدي فاقتلعته من الرطوبة (وهي المسؤولة عن تدخّل أبيه لديه تدخّلا متأخّرا عن إبانه ، غير مشجع) وأجلسته في مكتب الطبيب النفسانيّ الشابّ .

— لقد عزلناك على حدة مدّة خمسة عشر يوما لتهدئتك . أنت ذو طبع قويّ . وقد لاحظت أنّك كلّما أردنا بك مزيدا من الخير تفاقمت ثورتك علينا . ولكن لا علينا . قل لي ما الذي يؤلمك وما بك ؟

— ولكنّني لا أتألّم البتّة . وكلّ شيء على ما يرام . بل هو أحسن ما يرام . ولولا هذا الحائط الذي يفصل بيني وبينك ... لا ، هذا ليس بحائط وإنّما صفيحة رقيقة من الفولاذ يستحيل اختراقها . إنّي لأراك ضبابيّ الصورة . ولكن ترى كيف يمكن للانسان أن يرى الأشياء على صورة أخرى في هذا البلد ؟ فإمّا أنّ تختار الرؤية الضبابيّة . وإمّا أن نقرّ العزم على

الرؤية الخالصة أعني على رؤية كل شيء بجميع الجزئيات ... وعندها نحسّ بأنّنا لسنا على أحسن ما يرام فعلا ... لقد ثبّتّ النظر في الشمس طويلا . فرأيت فيها عالما نظيفا ساميا وسط جمال العلامات والألوان ، عالما خالصا

ــ قل لي : ما أسمك ومتى وأين ولدت ؟

ــ ثلاثة قرون ... ولهذا فالأمر متوقّف على ... فلكلّ شهر قمريّ إسم ولكلّ عاصفة ذكرى ولكلّ سؤال سطل من الماء يقذف به على وجه المصير الأعور ... أوه ! أنا لست خائفا ... ويمكنني أن أقول لك إنّني ولدت في قطعة أرض خالية في أحواز المدينة وقد غرست اليوم بأكواخ من الزنك وخيام سوداء وسحائب وغبار وجداول من الوحل والطين . لقد ولدت عدّة مرّات في هذه الأرض القاحلة . وأنا لست وحدي . فأنا جميع أولائك الصبيان الذين يلعبون بالحجارة وبالكلاب المريضة . أنا من جميع قطع الأرض الخالية بأحواز المدينة . أنا من جميع تلك الخيام التي مزّقتها الريح . أنا مدينة القصدير المتقدّمة الزاحفة على المدينة النظيفة ... وحتّى إذا ما حبسوني فإنّني اواصل مسيرتي وزحفي ... أنا أتقدّم ولكنّهم لا يرونني . وهم في ذلك مخطئون ...

ــ بلى فنحن رأيناك ، والدليل على ذلك أنّك هنا ...

ــ هل أنت على يقين ممّا تقول ؟ فلقد تأخّرت إذن . يجب عليّ أن أنصرف . فقطعة الأرض الخالية المزروعة بشقف القوارير في انتظاري ، لأنها لا تستطيع التقدّم إلى الأمام بدوني ... مع السلامة ... أنا ذاهب ...

ــ هدّىء من روعك أنت الآن معنا ونحن مقدمون على معالجتك ...

ــ ولكنّي لست مريضا ...

ــ بلى ... بلى ... هل تناولت دواءك ؟

ـــ لا .

ـــ ها أنذا أنظر في ملفّك : لقد قمنا بكلّ شيء فيما يتعلّق بك . بما في ذلك الصّدمة الكهربائية وسائر الأمور الأخرى ...

ـــ آه ! تعني التيار الكهربائي بالرأس ؟ أنت تضيع وقتك . فذلك لا ينفع في شيء لأنّي محصّن ضدّ الكهرباء وضدّ سمومك الأخرى ... وبخلاف ذلك فأنا مريض بمرض الحساسية المفرطة للضّحالة ... وهنا أنت لا حول لك ولا قوّة ... وتستطيع أن تقوم بجميع دراسات العالم بأوربّا وبأمريكا ... ولكنّك لن تفهم شيئا ممّا أقول .. ويكتب الطبيب النفساني في أسفل الملفّ التشخيص التالي : « متماد في فورته الهذيانيّة ؛ عدوانيّ ؛ إضطراب واضح في الشخصيّة . فقدان الشعور بالهويّة ؛ المطلوب الاستمرار في استعمال الصدمة الكهربائيّة وفي تناول الدواء الآتي : درو ليتان ـــ لارقاكيل ـــ هالدولي ؛ في شكل حقنة في الصّباح وحقنة في المساء . المرغوب تشديد الحراسة عليه . »

ـــ بلى بلى ، فأنا أفهمك .

ـــ اسمع يا سيدي الطبيب ؛ إنّه ليس أبقى من الماضي فلا تدّعينّ أن هذا هو العلم . أعلم ، عافاك الله ، أنّ الجنون يشبه حبّة العنب التي تسكر . لا شكّ أنّك تعرف المثل القائل : « دخلت فمه حبّة واحدة من العنب فكانت كافية لكي يسكر » ؟ هذا هو . فكهرباؤك لن يكون لها حول ولا قوّة في هذا الموضوع . ولا أسفارك السميكة كذلك . أتعتقد أنّك ستنيمني لكي تجبرني على السكوت ! يا للخطإ المبين ! ويا لفخامة هذا الخطإ ! أو تظنّ أنت أن الفائض لا يمكن أن يأتي إلّا من رأسي المجنون ؟ وماذا لو كان المجنون لا رأس له ؟ لقد أحرجتك هنا ... ترى أين تعلّمت كلّ هذا العدد الكبير من الأشياء ؟ أنت عالم علّامة أليس

كذلك ؟ ولكن قل لي بربّك ، هل نظرت في يوم من آيام حياتك إلى إحدى الغابات ؟ وهل جلست ذات صباح على ضفّة النهر ؟ وهل وضعت يدك على شعر أحد الصبيان ؟

ــ لا ولكنّني أنا سأجيبك بذكر مثل سائر آخر وهو : « إصطنع الجنون تربح » هذا هو ، فأنت تتظاهر بالجنون وتظن أنّنا لا ندرك ذلك . ياله من خطإ !

ــ أفهمني ولا تناولني دواء ...

ــ نعم أ نا أفهمك ولكنّني أريد مساعدتك . لقد التبست عليك كلّ الأشياء فخلطت بين التاريخ والبلدان . إنّ للبلدان حدودا . وأمّا أنت فإنّك تتجوّل مثل الريح . أنت تجهل الحدود . وها أنا أطرح عليك سؤالا بسيطا : أين نحن هنا ؟

ــ هنا نحن في روضة عمّرها الحسك ...

ــ لا ، في أيّ مدينة ؟

ــ نحن بتلمسان . أجل هذا هو . قد عرفت . نحن بمدينة سلا . تلمسان . نعم . الأمر كما كنت اظنّ . بصفاقس لا ، أنا مخطىء . ربّما نحن بمقبرة لا اسم لها ولا بلد ، في بلد محايدة يلحق فيها الأذى بالناس بتمرير التيّار الكهربائي في رؤوسهم ويقال لهم إنّ في ذلك منفعتهم .

ــ في سبيل منفعتهم نحن نمرّر الكهرباء في آذانهم . وبعد ذلك يثوبون إلى رشدهم ، ويدخلون من جديد في عالم أليف عالم متوازن . وانت إذا أردت إيقاظ أحدهم لم تستطع ذلك باستعمال التمسيحات اللطيفة فانّك لامحالة مضطرّ إلى اتخاذ وسائل أخرى . أعترف لك بأن هذه الوسائل لا تبعث على الغبطة والحبور ولكن ما العمل امام أنعدام أيّة وسيلة أخرى . فالبشر ليسوا في غاية البساطة بل هم لا يطاقون ولا يحتملون . تصور انّ

نصف المرضى هنا ليسوا بمرضى حقّا وإنما هم أناس بلا شغل بلا عائلة يجدون هنا المسكن والغذاء وغسل الثياب ويحاطون بحنان شبيه بحنان الأمّ مجانا ... نعم هنا تتكلّف الدولة بجميع شؤونهم مجانا . فهم في الجنّة ! ولهذا فإن المستشفى يستحيل الى إصطبل . نعم يا سيدي ، الى اصطبل تأتيه فواضل مجتمعنا للهذر والهذيان . هذا مع الملاحظة أنّي على بيّنة من كل هذا ومع ذلك فأنا لا اقول شيئا بل أغضّ الطّرف واترك الأمور تمرّ . وأحيانا تتشنّج أعصابي فأضاعف أقساط الدواء . أقول لك الحقّ أنت البارع في تقليب الكلام : مستشفى المجانين لا يطيب فيه العيش لأحد ، فظروف حفظ الصحّة فيه ناقصة والانسان يتعوّد بذلك في نهاية المطاف . عندما كنت بصدد القيام بمدّة الداخلية بالمستشفى في أروبا كنت قد مللت هوسهم المفرط بالنظافة . كان في الامر إفراط . وأمّا هنا فقد مللت التهاون والاهمال ... ثم اني لو عملت بما يقول المرضى لكان من الافضل ان اصبح مرشدة اجتماعية ! وأنا أخشى ان اضيع ما تحصلّت عليه بمشقّة وعناء . ولهذا فإن موقفي في عملي هو موقف الطبيب . فأناول المرضى الدّواء تلو الدّواء . ولكنّ الأمر المقلق هو ان الدولة ليس لها من المال ما يكفي لاقتناء المسكنات التي أنا بحاجة إليها . وها أنذا أسرّك سرّا لأنك أعجبتني نعم انت . ولهذا فسأخاطبك بصراحة : أنا أحلم بصيدليّة ، نعم بحانوت جميل بهيّ فيه المئات من انواع الادوية والعقاقير وفيه من الأقمصة الجبريّة المجعولة لكبح جماح المجانين ، ولكني أريدها موسيقيّة ، وفيه من الممرّضات العاريات النّهود ... وأمّا هنا فأنا أشعر بنفسي كالأبتر نوعا ما وكمن لا يستعمل جميع كفاءاته نوعا ما ... لا سيما منذ أن جعلت الدولة الطبّ والتطبيب مجانا . ياللمصيبة ! أو تظنّ أن الاخوان قد فهموا معنى هذا القانون ؟ فحتّى الذين ليسوا بمرضى أصبحوا يكتسحون

المستشفى . لستُ أدري لماذا ولكنّهم أصبحوا يقبلون بتزايد مستمرّ ويقولون : «افحصونا! من يدري لعلّنا مرضى ! » ياله من تضييع للوقت ! تلك هي الاشتراكية : ان يقبل الانسان عن طيب خاطر أن يكتسحه الناس وأن يكون في خدمة الدولة والشعب وان يدفع له مقابل كل ذلك أجرة بخسة . الشعب ! آه ! يالها من كارثة ! إنّه الاختراع الأعظم والوهم المجّرد ! قل لي بربّك أنت الذي يطفح منه وضوح الرؤية ودعة البال ، قل لي تُرى ما الشعب ؟

— إذا قرّرت اعتباره فكرة مجردة فهو كذلك فعلا ! الشعب ليس الجمع الغفير ولا الحشد الفوضوي ...

— نعم ، فهمت ، الشعب هو الجمهور المجمّع الصّامت ...

— الصّامت ؟ ربّما كان ذلك . وكيفما كان الأمر فانت أصمّ بل أنتم كلكم صمّ يا صغار صنّاع العلوم والدراسات الأوربية ...

— يا « محا » ! إنك لم تعطني لا الخيط ولا الابرة وانت لا تميّز بين النّجمة وبين الرّمل ...

— لك ذلك إن شئت . فأنا التياس مندهش . ذلك ما أنا : مندهش . إن لعابي ليشهد على كل هذا الاندهاش العظيم .أيّ بلد ...

— نعم ، أيّ بلد هذا ! ولكن انت ، نعم انت وامثالك الذين اردتموه ان يكون هكذا : بلدًا فقيرا متخلفا مريضا .

— كيف تقول هذا ! فالشعب عندك مسؤول لأنه اختار أن يعيش على هوامش الحياة . صحيح جدّا . فقد عاهدنا الله على الفقر ، نذرنا ذلك نذرا واخترناه اختيّارا ! لكم الغراء والمرافق والمستقبل ... ولأطفالنا قليل من التعليم بالمدارس وكثير من الصدفة والاتفاق ... أفلا تستحي ؟ ثم ان كل هذه المعقدات أجنبية غريبة عنّا . ترى لِمَ مستشفيات المجانين : فمن

قبل ، أعني قبل الفرنسيين ، لم يكن هناك مستشفيات للمجانين .

ــ ولكن هناك من المجانين من يمثل خطرا ولا بدّ من حماية المجتمع منهم .

ليس ثمّة مجانين خطرون إلّا لأنّ البناية التي نحن فيها موجودة . ولو تركنا الناس أحرارا في مخاطبة السماء والعشب والريح ... هل تدري ما الذي يصيّر الانسان مجنونا ؟ الجوع . صحيح . في قولي هذا تبسيط للقضية والحقّ يقال . هناك أيضا الجذور المقطوعة . فهب أن لك شجرة وأنك تقتلعها ثم تحولها الى مكان آخر وأنك اثناء الطريق تقطع لها جذورها ثم تريد غرسها من جديد في مكان آخر . فلن يتأتى لك ذلك . لأن شجرتك ستموت . بيد انها تجفّ قبل ذلك وتفقد مالها من نسغ أيّ ان الفناء يدبّ إليها شيئا فشيئا . بمعنى أن الفلّاح الصغير الذي انتزعت منه ارضه او اختلس منه نصيبه من الماء ، نعم ، الفلّاح الصغير الذي وعدوه بالرخاء والرفاهيّة والذي يستمع الى كثير من الخطب ولا يرى أي شيء يتحقق بصورة محسوسة ، ان هذا الفلاح الصغير يشدّ الرحال ذات يوم الى المدينة الكبرى . مثله كمثل الشجرة . فهو يفنى . ولكن قبل الفناء هناك الاحتضار . فهو يكافح بطريقته الخاصة. إلى أن يأتي اليوم الذي يحبس فيه. فينقلب جثّة مجهولة الاسم في بيت موتى البلدية . أما أطفال الفلّاحين فإن انت لم ترهم يتسوّلون في الشوارع الكبيرة فانهم لا محالة بصدد مسح أحذية الناس ريثما يتمكنون من اشتراء جواز سفر يخول لهم الالتحاق بمناجم اوربّا .

ــ إن دوري هو المعالجة . وانا لا أعمل في مكتب التشغيل ولا في وزارة الثورة ــ الثورة أو الاصلاح لم أعد اعرف أيّهما بالضبط ــ الزراعية . وانا ايضا رجل حسّاس . أصغ الي . إن هذا البلد متى أفكر فيه

بجدّية ليبعث في دماغي الصّداع . ولهذا فقد قررت أن أكف عن التفكير فيه وعن سؤال نفسي كل هذه الأسئلة . وسأفعل كما فعل ابن عمّ لي . وهو صيدلي . ونحن ننتمي إلى نفس الجيل . فبينما كان يزاول دراسته كان ابوه وهو تاجر ثريّ يبحث له عن صيدليّة في أشدّ احياء المدينة الشعبية اكتظاظا بالسّكان . او تدري لماذا ؟ الدافع الى ذلك ليس على كل حال سواد عيون الشعب . لا ولكن لأن هذه الأحياء البائسة هي التي تنتشر فيها الامراض اكثر فيجمع فيها الصيدلي من المال اكثر . ومنذ ان استقرّ في صيدليّته — وقد سمّاها زيادة على ذلك « الصيدليّة الشعبيّة » — جمع أموالا طائلة . ولابن عمّي هذا صديق طبيب عيادته قبالة الصيدلية . فهما يتراسلان الحرفاء بلا شفقة ولا رحمة ، وهكذا فان الصيدلي قد اقتنى منذ عهد قريب دارا من طراز « تكنكلور » ولكنه ليس سعيدا في حياته . وأظن ان سرطانا قد اصابه ...

— واأسفاه ! لأنه ليس ثمة قط واحد يغادر المنزل الذي يقام فيه حفل زواج ...

لقد انساقت نفسي الى الاستطرادات . فلنضع حدا لهذه المحادثة فأنت لك قوّة ذات تأثير سيء ونوع من التنويم المغناطيسي لمخاطبيك . فأنا ليس من عادتي أن أتكلم مع المرضى ... بل اعالج وأصدر الأوامر ولقد افرطت في تطويل الكلام معك . ولو سمعني طبيبنا المتربّص اليساريّ المذهب ... فهو لا يتكلم الا عن السياسة وهو ضد كل شيء . ضدّ الطبيب وضدّ الطبيب النفساني وضدّ النظام . وهو فوضويّ المذهب فيما اعتقد صالح للهدم لا للبناء .ومنذ ايام أقام الدنيا واقعدها لأنه باغت أحد الممرضين بصدد إختلاس عدد من الادوية من نوع المضادّات الحيويّة ، كان مقدما على بيعها في السوق . اعرف ان مثل هذه الأمور تنزعج لها النفس في

البداية ولكن الانسان يألفها بعد ذلك . إلا ان متربّصنا فيما يخصه يرفض أن يألف ذلك . وهو لا يريد ان يعطي الأدوية للمرضى وذلك ما يغيظهم . الناس هنا يعشقون الأدوية وكلّما أعطيتهم عددا من الادوية اكثر ملكت نفوسهم ... نعم ان كل هذه الحكايات المستوردة من الخارج ...

واقتحم مكتب الطبيب النّفساني عدد من الافراد مرتدين بلوزات بيضاء فاقتادوا « محا » ولم يتمكن من الوقت الّا لرفع عقيرته بهذه الصيحات :

ـــ لمَ كل هذه الخلائق ؟ ليس لمناسبة ذبح حمار فيما أعلم ؟ خلّوا سبيلي فما انا الّا عابر سبيل . كنت أتحادث ليس الّا . ولكنكم لستم من المستشفى ؟ ولستم ممرّضين ؟ ولكن الى اين نحن ذاهبون ؟ أنتم تلوون معصمي . ولكن لم كل هذا العنف والشراسة ؟ ها أنذا أتبعكم . الآن عرفت الى اين تقتادونني . إلى سرداب . السرداب السرّي . آه ! لقد كنت أتوقع هذا . فأنا الفريسة المثلى . لقد سجّلتم كل شيء فلا تتحمّلوا مشقّة تعذيبي لكي أتكلم فانا لا اخفي شيئا . وما قلته انتم عارفون به حق المعرفة ... آه ! يا لهم من خلق فوضوي ! انتم ترون هناك على الهضبة : ترون الطفل الجالس هناك . انه ينتظرني . انا اسمع صوته . انتم لا تسمعون شيئا . لا ترون شيئا . الهضبة الصغيرة جاثمة فوق السحابة . انها تقترب او تبتعد . لم أعد أعرف . انكم تخنقونني ، اتركوني أسمع وارى . أتركوني أسمع. انه يخاطبني . انه ينشدني قصيدة . يا للمصيبة ! فها هو الطفل قد تخلّت عنه الهضبة منذ حين وها هو يهوي بل يطير ويتعلق بقطعة من السحابة ويصرخ . الصرخة لا تخرج من جسمه . الطفل يتأرجح متنقلا من

سحابة الى سحابة . كوكب صغير ضائع . صورة تائهة في السماء . انه يطفو في الهواء وشعره السّبط الجميل يتماوج في الريح . هو ذا طائر يمر ويد تتحرك . الهضبة قد اختفت . لم اعد اراها . لم اعد ارى شيئا . ترى لمَ تضعون لي هذه العصابة السوداء على عينيّ ؟ ولكنني اعرف اين نحن ومن انتم . انا عرفتكم بأشخاصكم وسأعرفكم دائما . اني لأسمع اصواتا غريبة ، اسمع ماء يسيل وهاتفا يرنّ جرسه مرارا . انا اعرف : تحت عبء الأبدية السماء ... ولكن الطفل يهوي... يهوي ...هويًا في الظلمات .. انه يولول ، يعوي .. وانا ... أ ... أ ... آه ...

جسم لا يزال دافئا . على الوجه آثار دم ، وفي الفم . « محا » فضاء تعبره بسمة الطفل . بسمة مشدودة إلى الأبديّة الليّنة الخفيفة . جسم عمّر قرنا وأكثر . ولا تجعيدة واحدة : جسم طفل ؛ حنان البصر الراحل ؛ صمت شعب .

تحت عبء الأبديّة السماء ، ترك للرمال ، يسائل الحجارة ، يسائل جدار الحصن ، يسائل السور . أنطفأ كوكب ، هذا الصباح ، على الندى ...

دفن « محا » ليلا في حفرة بمقبرة الفقراء .

« إنك تقودني مباشرة إلى النهاية ،
وقد ابتدأ الاحتضار
ولم يعد لي شيء أقوله
إني أتكلّم من مثوى الأموات
والأموات بهم بكم » .

G. Bataille   جورج باطاي

ونوديّ الأطفال من تحت التراب ، ناداهم « محا » وتلاق ذلك الصبيّ وبعض الرفاق الآخرين ليلا بمقبرة الفقراء . والشجرة أيضا تحوّلت هي الأخرى إلى ذلك المكان . إذ كان لا بدّ من بسط قليل من الظلّ على ذلك القبر وعلى زائريه . كان « محا » يتكلّم بهدوء . يلقي بعض القصائد قاطعا إيّاها من حين إلى آخر بإبداء بعض التأمّلات الفلسفيّة . كان يستشهد بالنبيّ محمد وكان به معجبا إعجابا كبيرا ، متماديا في إنذار الناس في هذا البلد وتحذيرهم من الخداع والكذب والنفاق والعدوان تلك الصّفات التي ابتنوا منها نظاما في الحياة عاديّا معهودا .

وشاع الخبر بالمدينة وانتشر بأن « محا » يتكلّم في قبره . أهي إشاعات ؟ أم أوهام ؟ أم تطيّر ؟ لا علينا ! المهمّ هو أنّ المقبرة كانت تكتظ كل يوم جمعة بجماعة من الرجال والنساء والأطفال يغزونها للاستماع إلى كلام «محا» . فيكون هنالك عدد كبير من المتطلعين والفضوليّين وكذلك عدد من الرجال والنساء ممّن عرفوا « محا » حين كان يعبر الحياة والبلاد . كانت فاطمة الزهراء وابنتها « ضاوية » عند أسفل القبر . كانتا خاشعتين في صمت . أمّا عائشة فلم تكن ضمن تلك الخلائق . ذلك أنّها قد التحقت به في قبره . وما هي إلّا سنونوة كانت تستبقي الربيع في جسمها الصغير . ولقد اختفت عائشة ذات يوم في قلب الغاب . أمّا « موشي » صديق « محا » القديم فقد كان بالمقبرة أيضا منعزلا عن الجماعة شيئا ما ، كان ينظر إلى تلك الخلائق الصّامتة ويرهف السمع وينصب أذنيه للانصات إلى كلمة «محا» العميقة . أمّا « حرودة » فقد كانت متزمّلة بلحاف أبيض تخاطب الشجرة . وكانت النسوة يرفعن أصواتهن بالدّعاء والابتهال . أمّا الرجال فقد كانوا يبكون .

لم يكن « محا » فرحا مسرورا :

أنا لست حجرا مقدّسا . ولست وليّا صالحا . ما أنا إلّا بشر . رجل فقير . رجل غنّي بجنونه ، غنّي بكلمته . إنّي هنا مع أخي المندي وصغيرتي عائشة متماد في الكلام والضحك . فاضحكوا معي وارقصوا معي . تكلّموا ! كفّوا عن إمساك غضبكم في عقر حلوقكم . انتشروا في الشوارع ، انتشروا في كبريات الساحات العموميّة . تكلّموا وقصّوا وانشدوا ولكن لا تبقوا مكفّنين في أكفان الصمت والخوف . اليوم احتجزوا حياتي ولكنهم ما احتجزوا جنوني . إنّ جنوني لطافح يفجّر الأرض ويخرج مثل الحشيش البرّي في كل مكان . من بين الأحجار وفي الرّمال وعلى زفت الشوارع . إنّ لي من جنوني لدفء في هذه الظلمات . نعم جنوني يفيض وينقلب حكمة ، يتلولب لولبا يصّاعد إلى عنان السماء . إنّه يخترق الأرض ، يكسر الأجسام يطوي السحب طيّا ويفتن الطيور . إنّ جنوني اليوم أكثر حريّة وكلمتي أشدّ جنونا . بيد أنني لن أحدّثكم إلّا عن الحبّ والممات ...

وقررت السلط غلق المقبرة لأجل غير معلوم ونشرت بلاغا في الصحافة :

« بسم الله تعالى القائل في كتابه العزيز « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وماهم من ناصرين » . (سورة النحل)

أيّها الشعب !

إنّ ديننا الاسلام ولغتنا العربية وديمقراطيتنا الاشتراكية وإيديولوجيتنا في تقاليدنا وتراثنا . ونحن مقرّون العزم على سدّ الطريق في وجه جميع أشكال الظلاميّة : من هذيان وجنون ومزعوم الشعر العدميّ التخريبي . نحن دولة عصريّة فالمجانين إلى مستشفى المجانين والمتسكّعون مأواهم السجن .

إنّ هذا الرّجل الذي زعموا أنّه يتكلّم في قبره لا وجود له وقد أثبت ذلك التحقيق إثباتا دقيقا باتّا . وليس لي في هذه المقبرة من « محا » ومن هنديّ شيء . إنّ « محا » لم يوجد قطّ فالتحقوا بأعمالكم وباشروا أشغالكم وانسوا هذه المقبرة ! »

وكان « محا » متماديا في هدوء في كلامه فكانت كلمته تبلغ الناس في الساحات العموميّة وفي الشوارع وحتى في عقر المساجد .

الزمان .

لم أمت من الشيخوخة . العمر ! الزمن ! لا علينا دعنا من هذا ! فهناك الزهور وهناك المطر يسقي الأرض ثمّ إن هناك أوقاتا جعلت للصّمت . لم أكن أتقن الحساب والعدّ . فلنقل إنّي قد تجاوزت ثلاثين ألف شهر قمري ونجمة واحدة . لم يحتفظ جسمي بالغضون والتجاعيد . لا بدّ أن جلدي هو كجلد الهنود الحمر ، يمرّ الزمن عليه بدون أن يتوقّف في مسيرته بدون أن يشقّ فيه ثلما أو جرحا . كل هذه الرقّة والحنان في خطوط جسمي . اعتقد أنّه سيأتي على بلدي يوم يضعون فيه الشيوخ في دار متخصّصة ، دار زرقاء موسيقيّة وعندئذ يموت الناس هناك من الشيخوخة . يموتون من الملل والبلى . ويصبح العمر حملا ثقيلا والزمن عدوّا لدودا . ولقد حملت من الأحمال على ظهري ما شاء الله ولقد كددت ولقد

حزنت أحيانا . بل ولقد فقدت الضحك لحين من الزمن ولكنّني لم أفقد الرغبة في الصّراخ قطّ ... وفي الواقع أنا لست بميّت . ترى كيف يموت من لم يوجد قطّ ؟ أنا رجل بدون اسم . ولدت في تاريخ مقدّر بمجرّد التخمين . ولم آت من أيّ مكان معروف . هل اتيت من إحدى الهضاب أم من أحد السهول أم من الأفق الضبابيّ المطموس أم من نعناع الزمن ؟ هكذا قرّروا أن يكون الوضع وضعي ! فـ « محا » لم يوجد قطّ ! ياله من سراب جميل لصحرائهم الشاحبة !... صحيح ليس لي أوراق تثبت موتي ... ولكن ترى كيف الحصول عليها ؟ لا ، أنا لا أعني وجود الرشوة ولكنّني لا أعتقد أن لي إمكاني أن أعمّر أيّة خانة من خانات بطاقة التعريف ولا أستطيع أن أكتب أي شيء على الخطوط المرسومة بالنقط المتتالية عليها ... لا تاريخ الولادة ولا مكانها ... إنّ لي ثلاث مائة واثنين وخمسين إسما ، إسم واحد لكلّ طلوع قمر . وتاريخي مكتوب في السماء . اذهبوا فاقرأوا في صفحات المتاه ... فإذا تبيّنتم شيئا فأعلموني به وذلك رجائي ومنيتي ... وأمّا المكان فقد كان قمّة أعلى موجة ... وكان بطن الشجرة ... كان بئرا ...ولقد ولدت من الأرض حين زلزلت زلزالها في بداية هذا القرن ... وقد يلزمني أن أقول : أنا الكائن الوحيد الذي لفظ به من جوف الأرض . ولا مبرّر البتّة للحديث عن شيء يسمّى الولادة . ولذلك فإنّي بادرت باكرا بعقد العزم على أن لا أستسلم أبدا للذهاب لمقابلة اللوعة ولا للولادة والجريان وراء لست أدري ماذا . قال جمل آخر هو صديق لي فيلسوف : « أن لا يولد الانسان هي بلا منازع أحسن طريقة . إلّا أنّها مع الأسف ليست في متناول أحد . » ولكن ذلك لا ينطبق عليّ أنا . لأنني أتحدّى جميع القوى الموجودة أن تهتدي إلى حصري في زمان أو مكان ما إلى حبسي في قفص بلّوري

محفوف بالأفنان والأغصان المورقة بأحد المتاحف المرمريّة وراء الكنيسة الكبرى المسيحية التي حوّلوها إلى معبد يهودي عند منتهى طريق الوحدة . آه ! ما أكثر التحدّيات ! أنا راغب عن سعادتهم تلك السعادة التي تكنسها لجّة احتضاريّة بين مشرق الشمس وغروبها . وكنت على بيّنة تامّة من أمري فيما كنت شارعا فيه . أن أكون ضربا من الشفافيّة المقضّة للمضاجع ... لم أكن قد ولدت وكان كلّ شيء ينوء عليّ بكلكل . كنت أرى من بعيد أشباحا تتململ وأجساما دسمة تزعق ملتمسة ذكريات أقل إرهاقا وإذلالا ووشاحات خبازيّة اللون تستعمل لعمليات انتحار جماليّة . وكنت أسمع خطبا رسميّة هي نسيج من الكذب والبهتان ومطليّة بمادّة « البرينتين » وبزيت الكاكويّة ، كان ذلك يتقاطر ويسيل من كل ناحية فانتابني الغثيان . وكنت قد بدأت بعد في التفكير في الأب الشيخ وفي منازله وفي التفكير في خدمة المرأة الزنجيّة والبقيّة . كنت أمرّ عابرا . كنت أخترق البلاد والمظاهر . ومن وراء وجدت سلما وسطحا وساحة كبيرة وفرنا للخبز وحمّاما مجعولا للأقنعة الموضوعة وراء الواجهة البلوريّة للقاعة الشرقيّة للاستقبال والضحك من خلال حجاب الكآبة الكبرى ... كنت أرغب فقط في الكرّ كرّة سريعة وفي الاقامة إقامة صغيرة في صلب النظام وفي جسّ ذلك الواقع قليلا وفي وضع قنبلة في الدار يوم الزفاف الأكبر ... قنبلة أو صاروخ . في وضع كيس من العذرة وجيفة من الأجياف على مائدة الطعام ... كنت أريد التعرّف على الآخرين وسط أحداثهم المضحكة في غرابتها وشذوذها عندما يسيل لعابهم ، عندما يسيل بصاقهم ويكبون من شدّة الغباوة .

ولكن قبلت فيما بعد أن أطفو وأبرز وأن أصعد إلى سطح الأشياء وسطح العصر فذلك لكي لأذهب إلى الغاب لمقابلة عائشة الصغيرة وللعب مع صورها. لقد شهدتها وهي تموت بين أصابع الليل مثل الزهرة الصغيرة تسقط من شدّة التعب مثل العصفور يمدّ بجناحيه ويسلم رأسه للريح . لقد ماتت من شدّة الخوف والتعب . كان الأب الشيخ يخيفها وكانت الزوجة الحرّة ترسلها إلى طوابق أعالي الدّار وتسهو عن إطعامها . والآن هاهي عائشة هنا معي إنّها تجري في البستان المثمر وتغنّي لي لطف وأناة وهناك الصّبيان أيضا . إنّهم المجانين . واعترف أنّني قد أطلت المكوث عند بعض الأشخاص بعينهم . كانت ضحكاتهم الراضية المرضية تشلّ حركتي فلم أعد قادرا على الانصراف . كنت مسحورا مشدودا بكلّ تلك الدّمامة بكلّ قلّة الحياء تلك . الاشمئزاز !؟ من الهيّن على المرء الانسياق إليه أو مقاومته . تسألني ترى ما الذي سيبقى بعد موتهم ؟ الجواب : الاشمئزاز .

كل شيء بصدد التعفّن والتفتّت . هواجس صباحيّة معانقة شذيّ العطر . إنّهم لا يسمعون شيئا . لقد فقدوا القدرة على السماع ...

الموت

مثل سماء خريفية انحنى نظري على الموت . ولقد لامسها منذ الأزل ولم يزل . اليوم عرفت ذلك . فهذا جسدي ينفصل ببطء . وهذا جلدي يصفرّ اصفرارا ويتّسع اتّساعا . لأنّ عمليّة التعفّن عمل طويل وطريق طويل يطلق الانسان فيه لنفسه العنان فيسير بدون أن يشعر وينقصون منك فيه

بدقّة شديدة ومنهاجيّة مضبوطة . ومنذ أن فقدت الوالي علمت أنّه سيأتي يوم يكون فيه الأفق بذكراي رحيما فأرجع محلّى بجميع ماخلق الله من أنوار .

بالنسبة إليّ لم ينته أيّ شيء بل أنا مستمرّ في السؤال عن أخباركم وأنبائكم . حدّثوني عن أطفالكم . قصّوا عليّ قصّة البلد . خذوا من وقتكم وقفوا على عتبة مغارتي . أرهفوا السمع اطبخوا الشاي في ظلّ هذا الحنين وارووا لي أساطير الأوّلين . إنّي لأشعر بالحزن والكآبة ولم اتعوّد بعد هذا الغروب المؤبّد . إنّ بي فقط ضعفا ولي من مواطن الخلل ومن فترات الصمت ما يدوم فقصّوا عليّ قصّة المدينة والليل المتجدّد الذي يعود ويعود كلذع من سخرية بين اللحاء والنسغ . حدّثوني عن لجّة البحر وعن الأمواج . أنا أعرف أنّ الشمس مازالت هنا وأعرف أن البحر لا يكذّب أقوالي: بل هو يكرّرها ويعيدها ويرسل بها فترقص على قوالب الاسمنت المسلّح . لكن ترى ما صار إليه أولئك العراة الذين ينهضون قبل مطلع الفجر فيقصدون ساحة المدينة الكبرى يبيعون فيها قوّة سواعدهم ؟ وما صارت إليه أولئك الفتيات الصغيرات القادمات من البوادي والأرياف واللائي يعرضن اجسامهنّ الصغيرة على شيوخ المدينة ؟ ما صار إليه أولئك الصبيان الرّاغبون في الحياة رغبة جامحة ؟

ها أنذا أسمع جموعا غفيرة تطالب بالخبز . وأسمع أمّهات يطالبن

بأطفالهنّ الذين اختفوا وابتلعتهم الأرض . ولكن لم أنتم مالكِثون على القبور وفي المساجد وفي المنازل وفي المقاهي وفي الحانات ؟ قصّوا عليّ قصّة البلد وفلوله . أريد أن أعرف . لنترك الاشاعات بسوق التبّن . إنّي افكّر في الأمور الجسيمة ولا أرى إلّا التّوافه . إنّ الأشياء ستظل طويلا حيث وضعت . الحجارة والخشب والمعدن . ونحن أيضا ، شاحب لوننا ، تحت الظلمات .

منذ أن فارقت جسدي أصبحت لا أعرف أين أذهب ولا أين أضع نفسي . ولا خيار لي إلّا بين الأرض الرطبة والحجارة الصّلبة . ما أكثر الأجساد المكدّسة تحت هذه الأرض ! صفيحات صفيحات الواحدة فوق الأخرى ، وريقات رقيقة صفر لونها الماء والزمان ولكن الزمن هنا ليس له حدود . ولقد سألت إحدى هذه الصفيحات فإذا هي شيء لا حراك به مجرّد من كل شيء بل وأثر دارس . ترى أيّة ذكرى قد تركها هذا الجسم عند أهله ؟ ولقد رجعت في حساب الزمان إلى الوراء صعدا ثمّ وقفت حين عميت عيناي ، حين قطعوا عنّي البصر .

الحياة ، الحياة كلّها . أهي ضحكة من الضحكات ؟ ضحكة تتفاوت درجة سعادتها . بل هي فترة من الهزل يصبح المرء فيها إمّا ذا رصانة ووقار أو ذا خسّة وصغار . ويقضي الانسان هذه الفترة في التماس الحبّ وفي إرادة الاحتفاظ به إلى أن يصطحبه معه بعيدا عن الضوضاء فيحمله إلى أحد البساتين أو إحدى الغابات أو أحد الكتب أو إلى أعماق الدّموع أو

منتهى الطريق أو إلى ورقة من الكاغذ أو إلى كفن من الزبرجد محفوف بمرايا صغيرة من الزجاج المصفّى وقوارير صغيرة من العطر أو إلى سطح من السطوح في حمارة القيظ وهو محبوس في هشاشة الأشياء تحيط به نظرات مائلة إلى الغروب وبالبروق على صهوة جواد في طيّات الصمت والوحدة . ولقد التمست الحبّ كالفارس يهيم من أجل اللغز .

ألا أيتها المخلوقات النافد صبرها ! تسلّوا أو تعزوا ! إنّ الحياة ، كل الحياة إنّما هي كالسّماء ينبغي السعي إليها على اطراف الأصابع أو العزوف عنها . عراة ! نحن نكتسي من بطن إلى آخر ، من أمّ الى أخرى من أرض إلى أرض أخرى . هنا بنيت لي مسكنا ومثوى . نحن نقترب من الحياة بلطف وأناة دون أن نعرف منها شيئا ونغادرها مفعمي النفس يقينا بوجود عنف هائل مريع . وكما يقول الجمل : الانسان يقبل عاريا ثم يتقنّع ثم ينصرف عاريا .

الحبّ إذن

الهنديّ .

إنّه يقطع من حين الى آخر فترات صمت الليل المنتشر كأنّه الغطاء فوق المرج

« أتساءل هل للأرض ما تقول . أتساءل هل يصيخ التراب إلى ما يقال . أتساءل هل دخلت الأرض أبواب الحياة وما الذي تحتها . ومع هذا فأنا أسمع ما تقوله الأرض .... »

أخي ! ما الذي تقوله الأرض عندما تباع بالمزايدة ويضبط لها ثمن لا نزول دونه . الأرض تباع وتشترى وهم يمسحونها ويقيسونها ويمزّقون مساحاتها . إنّهم يبذرون الموتى ويغرسون كتلا من الاسمنت المسلّح الاسمنت ومن الحديد . الأرض صماء لا تقول شيئا . ولكنّها عندما تتكلم ستكون الطامّة الكبرى ... لقد سبق لي ان قلت ذلك وتنبّأت به بل قل إنّ الأرض قد قالت ذلك لي وباحت به إليّ ...

أيا « محا » ! منذ أن احتضنتني هذه الأرض في جوفها ومنذ أن أخذت في تغذيتي من طينها ومنذ أن دفنني أهلي إلى جانبك ، دفنوني جالسا مشبّك الرجلين مستقبلا الغرب ومحفوفا بمعدّاتي الأساسية : البندقية

والعطاء والمغلاة والموكاسان (2) وروحي في انتظارك لكي نأخذ معا الدرب الذي يؤدّي إلى خليج القلب .

وسأرافقك لحضور رقصة الشمس على دروب الجنّة . انتظرني ! فأنا لا يمكنني أن أغيب طويلا . بقيت لي بعض الكلمات ينبغي أن أزيدها . لقد بلغتني رسائل من الأرض ومن المحيطات ولا بدّ لي من أن أبلّغها إلى الناس . وقد بلغني منذ حين أنّهم يدوسون رفات الميّت وهي رميم ...

أخي ! أنظر ! تر الفجر طالعا على حقل مجنون بالأنوار . إنّه الربيع يقبل ! « ولقد قبلت الأرض قبلات الشمس وسنرى عمّا قريب هذا الحبّ يؤتي أكله ! » أو تسمع قلب سيّدتنا الأرض يدقّ وينبض ؟

غابتي حيث سقط رأسي هي التي تحيا. وأشجاري هي التي تعيش وريح كلماتي هي التي تهبّ ... لقد قلت لي إنّك أضعت ذلك الطفل الذي كنته عندما أصبحت متحضّرا ولكنّك منذ أن عدت إلى الأرض أصبحت ذلك الصبيّ الذي عرفت من جديد ...

« عندما كنت طفلا صغيرا كنت أتقن فن العطاء . ولمّا أصبحت متحضّرا ضاعت منّي هذه البركة . كانت كلّ شجرة محلّا للاحترام والتبجيل » أصغ إلى ما كان رئيس القبيلة « القميص الأحمر » (Red jacket) يقول عن الشجرة :

« لقد عرفناك أوّلا شجيرة مشتاقة إلى قليل من التربة لتنبت وتنمو . فأعطيناكه ، وبعدئذ ، وبينما كان في وسعنا أن ندوسك بأقدامنا ، سقيناك وأرويناك ووقيناك . والآن قد كبرت فأصبحت شجرة عاتية قمّتها في السحاب وأغصانها منتشرة تغطي البلاد قاطبة بينما نحن الذين كنّا صنوبرة الغاب الكبرى قد أصبحنا نبتة ضعيفة وإلى حمايتك ووقايتك نحن محتاجون . وفي أوائل عهد مجيئك كنت تتعلّقين بركبنا وتسمّيننا : « أبعي » ، فأخذنا بيدك وسمّيناك أختنا . ولقد كبرت الآن حتى طلتنا وبلغت من العلوّ ما أصبحنا عاجزين معه على الوصول إلى يدك . بيد أنّنا نتمنّى أن نتعلّق بركبتيك وأن تسمّيننا أطفالك » .

بحب آخر مختلف ...

كان اسمها السحابة المتقلّبة في مرج الحبّ . كان ذلك اسمها العربي .
ولقد أحببتها وتهت بين الجمال والحنان . أحببتها بالحبّ وبالصداقة . كان
لها في عينيها من الضحك ومن النور نصيب وكانت ترقص بين أصابعي ،
كانت تنشد جنانا ثماره حبّات نور ورذاذ . أنا لا أبكي وأنعم ببغضي
للدموع عالمون . في أعماق حلقي حجرات بيضاء ، إنّي أشعر أن يدا
ثقيلة ، يدا أجنبيّة بصدد الوقوع على صدري . وزنها كوزن السماء وهي
تمنع عنّي النفس . إنّي أشعر بالكلمات التي اكتنزتها في جسمي تتكدّس
فإذا هي مدرات من تراب . ترى ما عساني أقول عن حبّ لا نهاية له
نسج من قطع صغيرة ومن أزمنة لم تكتمل ؟ أواه ! إنّ ضناي ليشعر بالبرد
ينتابه في قعر البحر المحيط . أنا ذاهب على الماء وأنا طائر النورس الذي لا
يبالي . أغادر الميناء تحملني ريح الصباح .

هذه اليد الثقيلة التي على صدري تطبق جفني . إنّه لموت لطيف تحت الأرض المحمومة . لم يبق لي حينئذ إلّا الضحك وألق نجمة على جبيني كأنّه الحلم المنبوذ . كنت أحبّها بالحبّ وبالصّداقة في جمال النهار المطلّ وفي وحدة البحر وقد انسحب ليهبنا فراشا من رمل وكفنا من زبد . على الكثيب بذرنا ضحكا من جنون واختبال : وعلى الموجة وضعنا الحزن والأسى وتخلصنا من كلّ تلك الكلمات فإذا نحن عراة . وتخلّت عنا الشجرة . لم أكن أجرؤ على تسمية ذلك الحبّ ، لم أكن أجرؤ على ملامسة شعر البحر بأصابعي . كنت أبتغي طفلا وقصّة وسماء طفل ، كنت أبتغي السماء كل السماء . أراه أحمر وأشير إليه بقلبي وأهبه جنوني .

كنت أضعها في اليمبوس وأعود صباحا فأقابلها منحنية على ليلة قصيرة . كنت أفاجئها في الأحفة بصدد التقاط أشلاء صغيرة من الذكريات . ولقد التبست عليّ بسماء من حرير وبحرف عربيّ خطته يد رقيقة هشّة . أنشودة في اعماقي البعيدة ، قبل القرون الوسطى ، قبل الشذى والعطر . أنشودة نشوة وانتشاء . هيئة . يد مرتعشة ودمعة محبوسة كظمها الضحك .

ولقد بلغت من العمر عتيّه لأنني أضعتك بين المطر والسماء . وأنا أفقد رشدي وابتسامة الصباح . لامناص من إعادة تكوين النهار بواسطة نور آخر . إن عربي ليكفيني . كلّ الأشياء التي عشتها قد نسيتني وأنا أسّاقط أشلاء مبعثرة في صلب ذاكرتي ، ذاكرتي التي انساقت إلى الانحطاط مطاوعة . إنّي أقذف بنفسي في رمال الكلمات وما أنا إلّا جملة مرّة رديئة الالقاء ، رديئة التدبّر ، تنوء بها الحياة إن الوهم مازال يحوم حولي ، يستهويني .

ترى أين عساني أذهب مع كل هذه الأشلاء من ذات نفسي ؟ المدينة انقطعت عن محبتي والمحيط غاضب على البحّارة والشجرة تنحني على حيرات هذا القرن والوليّ الصالح قد أفاق من سبات عميق طويل . وأنا ، أنا الذي هجرته الكلمات وهجره الجنون .

منذ أن لم أعد أسمع صوت طفلي لم أعد أعرف لمن أمدّ يدي . ها أنذا أمدّها لعابرة سبيل . لا أحد يراني . وأنت . « أين أنت ؟ أنا أسمعك ، أنا اراك كما لو كنت وسط حادث غرق إحدى السفن . ترى هل تذكرين تلك الدّار الكبيرة التي كانت تطلّ في آن واحد على شارع كبير من شوارع مدينة سان فرنسيسكو وعلى نهر السين بباريس ؟ هل تذكرين البحر وراء المنازل ؟ وتلك الموجة العالية التي غشّتنا ؟... لقد كان ذلك أجمل طوفان يجري في فرنسا وأمريكا . كنت تضحكين . كنت تسترجعين ذكرى انتحار الأمواج ورتابة التباسنا . وهذا جسمك يتمرد فجأة ويقلب الألم . رجلك هي التي كانت تقذف بالرمل على وجهي . رجلك هي التي كانت تدفنني فكنت أدخل ببطء في موت لا منفذ له . تلك هي زوبعة ذلك الحبّ الضائع في العدم . كان حمّى معاودة ومطرا رعديّا متأخرا عن إبّانه ينفجر في فمي ، فمي الذي كان الدّود قد شرع بعد يعمل في قطعه . إنّي أنزل في الأرض بلطف ولين كما لو كنت أقصد تحدّي الموت والسّخرية منه وكان قد اجتاز جسمي من أسفل الى اعلى ، من أصابع رجلي الى شعر رأسي . ولقد عبرت ذلك الممرّ الذي لم يكن في إمكان الصاعقة أن تنزل عليه . وهناك كان لي جزاء بعض الشهقات ، ويداك هما اللّتان كانتا تكدّسان الأرض المبلّلة على بطني . وقد كنت بعد وراء نور

النهار ، وراء ذاتي نفسها وكنت أصغي إليك . إنّ آخر حسّ يخمد لدى المرء هو السّمع . لم تكوني تريدين رفع صوتك بالدعاء والابتهال ولكنّني وددت لو سمعت أنشودة الصّبيان . فهم ذوو جرأة . لقد نزعت الأرض فستانها . كان ذلك ليلا . أتعلمين ؟ لا يحسّ الانسان إلّا شيئا واحدا : الظلّ .

ولكنّني مازالت تخامرني ذكرى تهديك الدافئين بين يديّ وذكرى وجهك على بطني . كانت شفتاك تقعان وراء مدى البصر وفخذاك تنفتحان مثل ليلة متجنّنة طويلة . مثل الدّمعة فرحك . مثل الدّمعة كنت تحكين لي قصّة الحدود . وما هذه المقبرة إلّا عجوة من عجوات الأسى والكآبة .

التّراب الذي وضعته على وجهي حارّ سخن . إنّه تراب قدّ من حمّاك ومن فترات فراغ صبرك . تراب من تحسّراتك . لا بغض البتّة ، بل رأس مسدود ضيّقت فضاءه الغيوم وسدّه المداد لكي تكون الكتابة . كنت تقولين لي : قصّتنا ليست ممّا ينبغي كتابته . فلا تكتبي شيئا إذن . بل قصّي . تكلّمي . توجّهي نحو الفرس وحدّثيه عن ذلك الحلم الثقيل الوطاة . أروي له الغياب والريح المعلّقة . لا تتكلّمي عن الاحتضار . وإن انتابه الغثيان فلتعلمي أن حبّنا لم يكن سوى انتظار أليم طويل .

وعندها خرجت إلى الشوارع . حينئذ تكلّمت . رقصت . ضحكت في جنون النسيان كبرت وعبرت البلاد والعباد . وقفت على عتبة الحياة . نسيت ذلك الحبّ . فقدت آثار وجهك . أحببت الشجرة وقلت لبلادي ما قالته لي الأرض . لست رسول السخرية اللاذعة والشقاء ، إلّا أن ما تعلّمته وما رأيته يؤلمني ويؤذيني .

هل أنت مازلت هنا ؟ المرء سريع النسيان عندما يأتي إلى المنطقة الخلفيّة من الأرض . لست أشعر بالتّعب . وفي إمكاني أن أزيد في الكلام طيلة قرون أخرى وأن أجمّل الأغوية الدّرنة لأنّ لي زادا مخزونا من الفراغ والنّور .

أن أحبّ ! أن أحبّك وأغوص في هذه الأرض ذات الرطوبة . أتعلمين ؟ القلق هو هذا . القلق يتأتّى من الأرض الغبراء اللون . إنّه ينبت إلى جانب الحشيش البرّي . يتأتّى من أعماق أعماق النسيان . إنّ الموت ليتمطّى في متاهاتي . ومعدتي مازلت ساخنة . إنّ رأسي ليتخلّى عنّي . وأنا أشعر أنّها جرأة مفرطة ولكنّني أعلم أنّ هناك عاصفة تتهيّأ .

ولقد ذهبت بدون أن تغلقي لي جفني ، بدون أن تغلقي لي فمي . من التّراب هنا أكثر ممّا يحتمل ومن الجذور قلّة . بل وهناك عصفور سطح مدفون هنا ، دفن صدفة . ولقد وددت لو كان ثمّة كمّية أكثر بقليل من

النّدى، لأن الصرخة لم تعد صرخة ولأن سقوطي لا نهاية له .-أنا لا أنفك أسقط ومع ذلك فأنا ألمح الأرض ولكنّني ما أن أطأها حتّى تبتعد وتنهار . عيناي عاريتان . جسمي يفرغ . كل شيء قد هجرني . وأنت بذاتك تبتعدين . ولقد اصبح جسمي خاليا كخلوّ القفر من السراب .

منذ أن سكنت هذا الكتاب ، لم أعد أعرف إلى أيّ موت أهب نفسي . ليأت الموت من نظرتك أو من رغباتك . ليأت من ذلك الوطر الذي كنّا نقضيه بين فترتين من فترات الصمت . إنّي لأتيه في الفلق الذي ابتغيه . إنّي أهب نفسي للجنون الأخير ، ذلك الذي يتجاوزني ، أفعل ذلك لكي أضحك من نفسي ، لكي أوذي نفسي أثناء القرون الآتية. آه ليديّ على فخذيك ترويان لي البحر . آه لرأسي على بطنك .

مالي وما لأولئك الذين يطاردونني بفظاظتهم وشراستهم . لقد عمل جنوني في مواطن يقهنهم ثقبا وجبت نواحي البلاد ضاربا . ولكنّهم ضعفاء وهم ببغضائي غير جديرين . أنا لم أعد أفكّر فيهم . ولي هنا جميع تلك القرون من الزمن التي سأراها تقبل بنصيبها من السماء وبلياليها المصقعة ، تلك الليالي المثقلة بالوحدة وبأزمنتها المشوّهة وبأحلامها ، أحلام التمزيق .

في عينيك ، يتوقّف الزمن ليأخذ نصيبا من الشمس وليشرب في كفّيك . في عينيك النّهر وألم اليم . الألم ليس لي أنا بل لك أنت بالذات .

ولأصابيع مللك وكللك . في عينيك البحر ينحصر . إنّ صرختي ليست بأنشودة وإنّما هي حزمة من الحشيش يصعق بها فمي ، فمي الذي يلتهم . صرختي تطلّق الموت وتتعالى في هذا الكفن . وإذا ارتجّت الأرض رجّة خفيفة علمت عندئذ أنّ الجنون قد حلّ .

سيقبل الجنون على متن عربة كاليس من تلك الكاليسات التي تؤجّر وراء أسوار المدينة بين النخيل والزيتون . وإذا ما بكي طفلنا فآحمليه إلى مقبرة سيدي ابن منصور فستخبره هناك الريح والأولياء الصالحون بقصّة هذا الحبّ الذي ولد من الموت .

يدي المرفوعة تفرق السّحب . صورتك مازالت بارزة على الخمار الأزرق . وصوتك هذا الذي يطاردني . أيا أيّها العشاق تحت التراب يا من فرّق بينهم الزمن . أيّها العشّاق في حدود هذه اللحظة ، بالله عليكم لا تخنقوا أطفالكم ، اعرفوا كيف تنقذون حياة عصفور الخريف .

النّور يعوزني . الصّاعقة تعوزني . ولكنّ لي من العطر نصيبا ، زنجبيلا وزعفرانا على بشرة وجهي ونصف تمرة مقلوبة لاغلاق عينيّ . وبخور الجنّة في طيّات هذا القماش الأبيض . لم يعد للنصّ رداء . فقد أضعت كلماتي ونسيت اسمك . أعرف أنّه غمامة أو صبح قصير مجنون . ولكنّ وجهك يفتقده الفجر . رجلاك تفرّان من الجلد . آه ! إنّ الموت ليمنع عنّي البرد

وأمّا الثلج فإنّه يحميكم ويقيكم . أوّاه ! أيّتها الذكرى المائتة ! لا تلتفتي . إنّ حصانا من خشب يرطع في ذاكرتي . إنّه يئنّ . يتأوّه من شدّة الوحدة . اعطيه بعض الورود . إنّه ليحب أمارات الحبّ .

ترى كيف السبيل إلى دفع هذا الظّل الذي جاوز الحدّ ؟ وددت لو ضحكت ورقصت معك أنت ومع فرس صباي ، وددت لو ضحكت من الموت هذا الذي يفتعل الجدّيّة . ها أنا سأتجشأ . ولكنّني لن أتبرّز . فكلّ شيء قد تعطّل في هذا الجسم اليابس المتوتّر . وددت لو ألهيت الأقنعة والليل .ها أنا سأعطس . لعلّ ضفدعا يخرج من أنفي .

لم هذا الرّماد فوق بلاطة قبري ؟ وكل هذه الأدعية التي أسمعها ... فهل ذلك مجعول لمنعي من الضحك ؟ ولكن من ذا الذي جاء يبول على قبري ؟ أهو أحد الصّبيان ، أم الكلاب ، أم الشيوخ ؟ لا بل هي مومس مسنّة فرّت من السجون . إنّها تأتي لتنام بجانبي . وهذا موت غير مكتمل ينتشر على حقل الأرق . موت تسوقه الريح ويشحب لونه الانتظار . بنفسي إحساس بأن الاختبال سيستولي على البلاد عمّا قريب . ولقد سبق له بعد ان حاول تهديم القباب والمآذن . كنت آنذاك هنالك كنت حارسا على أبواب المدينة في ذلك البستان وما هو في الواقع الّا مقبرة سرّية مجعولة للأولياء الصالحين وللمجانين . أولئك الذين يركضون في مواطن المرايا واللّهيب . لقد كنت هنالك حين استولى العنف الأكبر عليهم ، صالحيهم ومجانينهم . وأمّا هؤلاء فقد كانوا أتباعي من الناس ممّن نسيهم البحر

وشجرة التّين . وأمّا أولئك فقد كانوا من الناس الذين يجتمعون في المساجد ويزحفون خلف آلات حربيّة تحميهم من غوغاء الشعب الصاخب وتدرأ عنهم لهيب الانتفاضة في آن واحد .

البلد

انت التي بقيت هناك ، لم لا تبلّغينني أخبار البلاد ؟ لم تختلفين على ذلك الغاب ؟ ترى لم الرجوع إلى منازل الحبّ ؟ الليل يعتزم القضاء على كلامي . أنا اتكلم فوق الحدّ وينقصني الحياء والخجل . أنا خائف ولا أريد أن يعود الاحتضار ثانية . وعسى أن تتفيّأني الأرض من جديد عندما ستقهقه ضاحكة . وعندها لن أبقى كما كانت ، أي ذلك الغياب الذي يتردّد على منازل الحبّ . بيضاء اليد ومرتفعة : أهو مصير متداع ؟ أليس ذلك من باب اليقين الموثوق به ؟ إنّ يديّ لتتغلقان على حفنة من الطين . إنّهما تتعلّقان بالحجارة . لأنّ السماء تمطر الآن عصافير سطح مجروحة وبعض الفراشات التائهة الضائعة وأنا أحسّ بالماء يصاعد . أهو عقعق يحاول التهام عيني أم هي يدك ذات الخواتم وضعت على القروح والكلوم ؟

إنّ لي مرجا متحركا خفيفا برأسي . مرجا حيّا ، عالما مكوّنا من — قصائد صغيرة مقلوبة على سماط من البروق . وهناك بعيدا توجد امرأة ، يوجد بلد ، يوجد شعب . وعلى شعرك قطر النّدى ، ندى الشهر القمريّ الأخير .

إنّ الكلمات لتسيل على جسمك سيلانا وأنت تنتقلين من الليل الى انخرام النظام ، ومن الصّمت إلى السّكر حتّى لا تلعني ، حتّى تجتنبي الدّعاء ، حتّى تكفّي عن التذكّر ، حتّى تكفّي عن الاختناق .

الهدم . بدلا من التقاط الحياة قطيعة قطيعة . بدلا من ترويق قلّة الحياء . الهدم . في سبيل عدم الانتظام . في سبيل عاتي الضحك ينبعث من خلفية الأرض . في سبيل الارتعاد من شدّة التأثّر . في سبيل الحمّى والكلمات التي تتمتم بها حين يضيّق عليك الحبّ أنفاسك . لذّة الحواسّ . إن هي إلّا حركة خفيفة كانت تجعل لسانينا يمتزجان ويرقصان ويفترقان وينتهيان في دوار الحلم الرّاقص .

بحبّ آخر في لحظتنا هذه سأحبّ .

لا . ليس لي أن أغشّي هذا الجسم بطائفة من الكلمات . ليس لي أن أعمّر غياب مجموعة من المقاطع اللفظيّة المتجنّنة النادرة . وها أنا أعود من جديد بدويّا من البدو الرحّل متسكّعا عبر ذكراك . سأُدرج انشودة لي طيّات الوحدة : فالآن قد أصبح لي هذا النّوع من الخلود . إنّه هنا ، داخل مدى البصر خلف الليل . إنّه هنا ، في الكتاب . في كراس من الكراريس . هل رأيت كلماتي ؟ إنّها تقلع طائرة وفي رشاقة تنطلق نحو سماء أخرى . لكأنّما الغياب غصن من غصون الذكرى . إنّها رقة مسحة

من مسحات اليد تداعب ، إنّها القصيدة الصغيرة نسيت على المنضدة .
غريب أمري أنا الذي أكدّ للهزء بكلّ هذه الظلمات .

إنّ جسمي طافح بالكلمات منذ أن حرموه نور الصّباح . إنّي لأتقهقر في طيّ التواءاتي . ترى هل أنا الذي اخترعت هذه الحافظة المسكونة ذكريات وجميع هذه الأشياء المغروسة في الأرض ؟ هل أنا الذي أنعت بقولهم لي : قررنا أن تكون صانع العالم ! ياله من سوء تفاهم ! قولي لي بربّك هل أنا الذي أضحك من نفسي أم هو حمار الليل الذي يدوسني الآن دوسا ؟ ولِمَ ارتأوا يا ترى أن يجعلوا من الشاعر نبيّا يصيح ويولول بكلمات تردّ بعد ذلك إلى الصمت الرهيب ؟ ليس الجنون ولا الكلمات بأقنعة شأنها أن تفصل بيننا وبين الحقيقة . آه ! الحقيقة ! ترى لم نتحدّث عنها ؟ لقد فات الأوان ! إنّها تدور وتدور في جوفي وفي جوف الأرض ، إنّها غير متواصلة . إنّها تغيب وتلتفّ على الشجرة الوفيّة لولادتي . الموت وحده يمثّل أجمل التواصلات: أثرا إلى ما لا نهاية . وأمّا الحقيقة فهي في الشقّ الآخر . فأنت ترين النّهر وترين العين ، عين الماء المتفجّر ليغسل أسئلتنا ...

بقيت لي اليد . وهي يقيني الوحيد . والكلمة الوحيدة الجليلة في خضمّ هيجان الأمواج الجهنّمي . أنت تجرين وراء البحر المحيط اليتيم والعسل على شفتيك . وعلى رجليك من الرّمل ومن الملح نصيب .

أما أنا فقد كنت أحيا بدون حبّ على أرض مكلومة ، في مرآة ذات ذكرى

بحبّ آخر في لحظتنا هذه سأحبّك

لست سوى صانع ألفاظ ترى ما أهمّية الألفاظ إذن ؟ وأنا ما أهمّيتي إذن ؟

« نيتشه »

الرباط ، سلا ، باريس

سبتمبر 1977 — ماي 1978

وكان الفراغ من انجاز هذه الترجمة يوم الجمعة 5 مارس 1982 في صبيحة جميلة مشمسة من أصابيح س . ب .*

. صالح القرمادي

* س . ب . يقصد قرية سيدي بوسعيد حيث كان يسكن المرحوم .

النصوص التي آستشهد بها الهنديّ مستقاة من كتاب « الطقوس السريّة للهنود الميكسوس» لصاحبه «هيها كاسابا» ــ نشرْ « المكتبة الصغيرة بايو » ومن كتاب « أرجل عارية على الأرض المقدّسة » . نصوص جمعها : « ت . س . ماكلوهان Mc Luhan نشر Denoël.

تم تصفيف وطبع هذا الكتاب
في شهر أكتوبر 1982
« بالمطابع الموحدة »
10، شارع مونبليزير ــ تونس

السحب : 3000 نسخة

سلسلة عودة النصّ (إدارة محمد كمال قحة)

□ سلسلة أدبية تعنى بنقل آثار كتبها أدباء من المغرب العربيّ مباشرة باللّغة الفرنسية إلى حقل الأدب العربي .

□ سلسلة ترمي إلى تخطي مرحلة الارتجال في ترجمة الآثار الادبية وتسهر على احترام الجوانب الفنيّة والجمالية في الأثر المترجم .

محا المعتوه ، محا الحكيم

بين هيبة السّرد ونفسه المسترسل وتوقّد الكلمة الدّامية ينتصب « محا » ليقصّ ، لينشد . وما القصّة إلّا وجه من وجوه حاضرنا المتقلّبة ؛ وجه لسلطان الأب ـــ الشيخ المطلق ، وجه لشراسة ابنه الأكبر وقد جعل من كسب المال عمليّة تقنوقراطية معقّدة لا يعتبر الجسد الكادح فيها إلّا عارضة من العوارض . وما النّشيد إلّا صوت المنسيّين والمعزولين منّا ؛ صوت المرأة وقد اغتصبت ، صوت البنت الرّيفية وقد قذف بها إلى خدمة من يعتبرها دون منزلة الانسان ، صوت الأرض وصوت الطّاهر بن جلّون وقد التقى بكلّ هذه الأجساد المكلومة حتّى لكأنّ النشّيد ترتيل .

« محا المعتوه ، محا الحكيم » سرد وإنشاد ، كلمة حبّ في عالم يلبس فيه التاريخ قناع الموت .

الطّاهر بن جلّون

ولد بمدينة فاس سنة 1944 . درس الفلسفة ومارسها بالمعاهد الثانوية بالمغرب الأقصى ويعتبر بحثه «حدّ العزلة الأقصى» **(La plus haute des solitudes)** تتويجا لنشاطه الفلسفي الذي نجد له صدى في جلّ مؤلفاته الأدبية . له أعمال أدبية متعدّدة منها روايات « حرّودة » **(Harrouda, 1973)**؛ « العرق المعزول في أغلاله » **(La réclusion solitaire, 1976)** و « محا المعتوه ، محا الحكيم » **(Moha le fou, Moha le sage, 1978)**. وله كذلك عدّة دواوين شعر نشرتها له دار « مسبيرو » (1972 ـــ 1980) إلى جانب مجموعة « رجال لحافهم كفن من صمت » **(Hommes sous linceul de silence, 1971)** صدر له سنة 1981 « صلاة الغائب » **(La prière de l'absent)** .

Moha le fou, Moha le sage .